# الفصل الأول

## القصص الفنية

### ١- ليلة صعبة

حدثنى عبدُ الله بن محمّد بن دَاسَةَ البَصرى رحمه الله، قال: حدّثنى أبو يحيى ابن مُكرَم، القاضى البغدادى، قال: حدّثنى أبى، قال:

كان فى جوارى، رجلٌ يُعرَفُ بأبى عبيدة، حَسَنُ الأدب، كثيرُ الرواية للأخبار، وكان قديمًا ينادم إسحاقَ بن إبراهيم المُصْعَبىَّ [١]، فحدّثنى: أن إسحاق استدعاه ذاتَ ليلة، فى نصف الليل.

قال: فهالنى ذلك، وأفزَعَنى، لِمَا كنت أعرِفه منه، من زَعَارَةِ الأخلاق، وشدّة الإسراع إلى القتل، وخِفتُ أن يكون قد نَقَم علىَّ شيئًا فى العِشْرَة، أو بُلِّغَ عنِّى باطلاً، فأحفَظَهُ، فيسرع إلى قتلى، قبل كشْفِ حالى.

فخرجتُ طائرَ العقل، حتى أتيتُ داره، فأدخِلْت إلى بعض دُورِ الحُرُم، فاشتدّ جَزَعى، وذهب عَلَىّ أمرى.

فانتُهِى بى إليه، وهو فى حُجرة لطيفة، فسمعتُ فى دَهْلِيزِها بكاء امرأة ونحيبُها، ودخلْتُ، فإذا هو جالسٌ على كرسى، وبيده سيف مسلول، وهو مُطرِق، فأيقنْتُ بالقتل.

فسلّمتُ، ووقفتُ، فرفع رأسه وقال: اجلس أبا عبيدة، فسكَنَ رَوْعِى، وجلست.

فرمى إلىّ رِقاعًا[٢] كانت بين يديه، وقال: اقرأ هذه.

---

(١) إسحاق المصعبى قائد شرطة بغداد.

(٢) قصاصات ورق، أو هى فى الحقيقة تقارير وبلاغات الشرطة.

فقرأتُ جميعَها، فإذا رِقاعُ أصحاب الشُّرَط فى الأرْبَاع[1]، يخبره كلُّ واحد منهم بخبر يومه، وما جرى فى عمله، وفى جميعها ذِكْرُ كَبَسَاتٍ وقعت على نساء وُجِدْنَ على فساد، من بنات الوزراء، والأمراء، والأجلاء، الذين بَادُوا، أو ذَهَبَتْ مراتبهم، ويستأذنون فى أمرهن.

فقلت: قد وَقَفتُ على هذه الرِّقاع، فما يأمرنى به الأميرُ أعزَّه الله؟

فقال: ويحُك يا أبا عبيدة، هؤلاء الناس الذين وَرَدَ ذِكْرُ حال بناتهم، كلّهم كانوا أجلَّ منّى، أو مثلى، وقد أفضى بهم الدهرُ فى حُرُمِهم إلى ما قد سمعتَ، وقد وقع لى أن بناتى بعدى، سيبلغْنَ هذا المبلغ، وقد جمعتهنّ -وهنّ خَمْسٌ- فى هذه الحجرة، لأقتلهن الساعة، وأستريح، ثم أدركتنى رِقّةُ البَشرية، والخوفُ من الله تعالى، فأردتُ أن أشاورَك فى إمضاء الرأى، أو شىءٍ تشير به علىّ فيهنّ.

فقلت: أصلحَ اللهُ الأمير، إن آباء هؤلاء النساء اللواتى قرأتُ رِقاعُ أصحابِ الأخبارِ بما جرى عليهنّ، أخطأوا فى تدبيرهنّ، لأنّهم خَلَّفوا عليهنّ النِعَم، ولم يحفظوهن بالأزواج، فخلوْنَ بأنفسهنّ، ونعمهن، ففسَدْنَ، ولو كانوا جعلوهن فى أعناق الأكْفَاء، ما جرى منهن هذا.

والذى أرى أن تستدعى فلانًا القائد، فله خمسةُ بنين، كلّهم جميلُ الوجه، حسن اللِّبس والنشوة، فتزوِّجَ كلَّ واحدة من بناتك، واحدًا منهم، فتُكفَى العارَ والنارَ، وتكونُ قد أخذت بأمر الله عَزَّ وجَلَّ، والحزم، ويراك الله تعالى قد أردتَ طاعتَه فى حفظهنّ، فيحفظُكَ فيهنّ.

فقال: امْضِ الساعة إليه، فقرِّرْ معه ما يكون لنا فيه المصلحة، وافْرغ لى معه من هذا الأمر.

قال: فمضيتُ إلى الرجل، وقررتُ الأمر معه، وأخذتُ الفتيان، وأباهم، وجئتُ إلى دار إسحاق بن إبراهيم، وعقدتُ النكاحَ لهم، على بنات إسحاق، فى

---

(١) كانت بغداد مقسمة إلى أربعة أقسام، وفى القاهرة إلى الآن من يعبر عن قسم الشرطة بـ«التمن» لأن القاهرة كانت مقسمة ثمانية أقسام أمنية.

خُطبة واحدة، وجعل إسحاق بين يدى كلٍّ واحـد منهم، خمسة آلاف درهم عَيْنًا، وشيئًا كثيرًا من الطِّيب، والثياب، وحَمَلَ كلاًّ منهم على فرس بمَرْكَبِ ذَهب، وأعطانى كلٌّ واحد من الأزواج مالاً مما دُفعَ إليه، وأمر لى إسحاق بخمسمائة دينار، وخِلْعةٍ، وطيب.

وأنفَذَ إلىّ أمَـهات البنات هدايا وأموالاً جليلة، وشكرْتَنى على تخليص بناتِهِنّ من القتل، وانقلبت تلك الغُمَةُ فرحًا.

فعدتُ إلى دارى، ومعى ما قيمته ثلاثة آلافِ دينار وأكثر[1].

●●●

(١) كان المصعبى فظّاً دموياً، وهذا واضح فى خوف نديمه منه، ومع هذا لجأ إليه ليجد له حلاً فى المشكلة، والوجه الاجتماعى ظاهر فى موقع المرأة، وضياعها فى غياب الولى، وسلوك أجهزة الأمن تجاه خطايا الكبراء... إلخ.

## ٢- ليلةٌ يشيبُ لها الغُرابُ

حكى دَلويه، وكان كاتبًا لِصَافى الحرمى، قال:

كان فى دار الـمُقـتدر بالله، عَرِّيفُ على بعض الفرَّاشين، يخدمنى وَصَـافيًا إذا أقمنا فى دار الخليفة، ففقدته فى الدّار، وظننتُه عليلاً، فلمَا كان بعد شهور، رأيته فى بعض الطرق، بزىّ التجَار، وقد شاب.

فقلت: فلان؟

قال: نعم، عبدك يا سيدى.

فقلت: مـا هذا الشَّيْب فى هذه الشهـور اليسيـرة، وما هذا الزىّ؟ وأين كنت؟ فَلَجْلَج.

فقلت لِغلمانى: احملوه إلى دارى، وقلت: حدّثنى حديثَك.

فقال: على أن لى الأمان والكِتمان؟!

فقلت: نعم.

فـقال: كـان الرّسمُ الذى تعـرفه على كل عَـرِّيف فى الدّار من الفـرَّاشين، أن يدخلَ يومًا من الأيام، هو ومـن معه فى عَرَافـته، إلى دور الحُرُم، لرشّ الخـيوش التى فيها[1].

فبلغت النَّوْبَةُ إلىّ، فى يوم كنت فـيه مخمورًا، فـدخلتُ، ومعى رجالى، إلى دار فلانة -وذكر حَظِيَّةً جليلة من حظايا المقتدر بالله- لرشّ الخيش.

فَلِعِظَمِ مـا كنت فيـه من الـخُـمار، مـا رششْتُ قِـرْبتى، ولم أخرج بخـروج الرّجـال، وقلت لهم: امضـوا، فـهاتوا قِـرَبكم لإتمام الرش، فـإذا رششـتمـوها فأنبهونى، فإنى نائم هنا.

---

(١) دار الحرم: جناح النساء فى قصر الخلافة. ورش الخيوش، أو رش الخيش لتبريد الجو، فكانت تعلق ستائر ترش بالماء كنوع من ترطيب الصيف الحار.

ودخلتُ خلف الخيش، إلى باب بادْهَنْج[1] تخرج منه ريح طيّبة، فنمت، وغلب علىّ النّوم، إلى أن جاء الفرّاشون، وفرغوا من رشّ الخيش، وخرجوا، ولم يُنبّهونى.

وتمادى بى النّومُ، فما انتبهتُ إلا بحركة فى الخيش، فقمتُ، فإذا أنا قد أمسيتُ، وإذا صوتُ نساء فى الخيش، فعلمتُ أنى مقتولٌ إن أحسّ بى، وتحيّرتُ فلم أدْرِ ما أعمل، فدخلتُ البادْهَنج، وكان صيْفًا، فجعلتُ رجلىّ على حائطى البادهنج وتسلّقتُ فيه، ووقفتُ معلّقًا، أترقّب أن يُفطن لى، فأقْتل.

وإذا بنسوة فرّاشاتٍ يكنسْنَ الخيش، فلما فَرَغْنَ من ذلك فرشنه، وعُبّى فيه مجلسُ الشّراب.

ولم يكن بأسرع من أن جاء المقتدر بالله، وعدّةُ جوارى، فجلس وجلسْنَ، وأخذ الجوارى فى الغناء، وأنا أسمع ذلك كلّه، وروحى تكاد تخرج، فإذا أعْييتُ، نَزَلتُ فجلستُ فى أرض البادْهَنَجُ، فإذا استرحتُ، وخفْتُ أن يُفْطَنَ بى، عدتُ فتسلّقت، إلى أن مضت قطعة من اللّيلِ، ثم عنّ للمقتدر أن جَذَبَ إليه حظيّتَهُ التى هى صاحبةُ تلك الدّارِ، فانصرف باقى الجوارى، وخلا الموضع، فَوَاقَعَ المقتدرُ بالله الجارية، وأنا أسمع حركتَهما وكلامَهما، ثم ناما فى مكانهما، ولا سبيل لى إلى النّوم لحظة واحدة، لما أقاسى من الخوف.

ففكّرت فى أن أخرج وأصعَد إلى بعض السطوح، ثم علمت أنى إن فعلتُ ذلك، تعجّلتُ القتلَ، ولم يَجُزّ أن أنجوَ.

فلم تزل حالى تلك إلى أن انتبه المقتدرُ بالله فى السَّحَر، وخرج من الموضع.

فلمّا كان من غدٍ نصفَ النهار، جاء عريفُ آخرُ من الفرّاشين، ومعه رجاله، فرشُّوا الخيْش، فخرجتُ فاختلطتُ بهم.

فقالوا: أيش تعمل ههنا؟

---

(١) البادهنج- فارسية: الممر الذى يسلكه الهواء بعد ترطيب الخيش، لتلطيف الجو.

فأومأتُ إليهم بالسكوت، وقلت: اللهَ، الله، فى دمى، فإن حديثى طويلٌ، فتذَمموا أن يفضحونى.

وقال بعضهم: ما بال لحيتك قد شابَتْ؟

فقلت: لا أعلم، وأخذت ماءً من قِرْبة بعضهم، فرطَّبْتُ به قربتى، وخرجتُ بخروجهم.

فلما صرتُ فى موضعٍ من دار الخليفة، وقعتُ مَغْشياً علىَّ، وركبتنى حُمَّى عظيمةٌ، وذهب عقلى، فحملنى الفرّاشون إلى منزلى، وأنا لا أعقِل، فأقمتُ مبرسمًا[1] مدة طويلة.

وقد كنتُ عاهدتُ الله تعالى، وأنا فى البَاذْهَنج، إن هو خلّصنى أن لا أخدُمَ أحدًا أبدًا، ولا أشربَ النّبيذ، وأقلَعْتُ عن أشياءٍ تُبْتُ منها.

فلمّا تفضّل الله تعالى بالعافية، وَفَيْتُ بالنَذر، وبعتُ أشياءً كانت لى، وضممتها إلى دراهمَ كانت عندى، ولزِمتُ دكَانًا لحمِّى[2] أتعلَم فيه التَجارة معه، وأتَّجر، وتركتُ الدَّارَ، فما عدتُ إليها إلى الآن، ولا أعود أبدًا إلى خدمة الناس، ولا أنقض ما تُبتُ منه.

قال: ورأيتُ لحيتَه وقد كثُر فيها الشّيْب.

●●●

---

(١) مبرسم: تحريف لكلمة معناها، مريض.

(٢) الحمىّ: والد الزوجة.

## ٣- مُنتهى الثقة.. الأميرُ والوزيرُ

أخبرنى أبو الفَرَج الأصبهانىُّ، قال: حدثنى يَحيى بن علىّ المُنَجِّم، قال: حدثنى أبى عن إسحق بن إبراهيم المَوْصلىّ، قال: لم أر قطُّ مثلَ جعفرَ ابن يحيى بن خالد البرمكى، كانت له فُتُوَّة، وظرفٌ، وأدب، وحسْنُ غناء، وضربٌ بالطبل، وكان يأخذ بأجزل حَظٍّ، من كلّ فنّ.

فحضرتُ بابَ الرشيد يومًا، وكان الرشيدُ نائمًا، فوافى جعفرُ، فقلت له: إنّه نائم، فرجع، وقال: سِرْ بنا إلى المنزل، حتى نخلو جميعًا بقيَّة يومنا، فأغنيك، وتغنّينى، ونأخذ فى شأننا، من وقتنا هذا.

فقلت: نعم.

فَسِرْنا إلى مجلسه، فَطَرَحْنَا ثيابَنا، ودعا بالطعام، فأكلنا، وأمر بإخراج الجوارى، وقال: لِيَبْرُزْنَ، فليس عندنا من نَحْتَشِمُهُ.

فلما رُفِعَ الطعام، وجىء بالشراب، دعا بقميصٍ حريرٍ فلبسه، ودعا لى بمثله، ودعا بِخَلُوق[1]، فتخلّق، وخلّقَنى، وجعل يُغنينى، وأغنيه.

وكان قد دعا بالحاجب، فتقدم إليه أن لا يأذن لأحدٍ من الناس كلِّهم، وإن جاء رسولُ أمير المؤمنين، فأعلِمْه أنى مشغول، واحتاط فى ذلك، وتقدم فيه إلى جميع الحُجَّاب والخدم.

ثم قال: إن جاء عبدُ الملك، فأذنوا له، يَعنى رجلاً كان يَأنَسُ به، ويُمازِحُه، ويُحضرُهُ خِلْواته[2]، ثم أخذْنا فى شأننا.

فبينما نحن على حالةٍ سارّة، إذ رُفِعَ السِّتْرُ، فإذا عبدُ الملك بن صالح الهاشمىٌّ قد أقبل، وغَلِطَ الحاجب، لم يُفرّق بينه وبين عبد الملك الذى يأنس به جعفر.

---

(١) الخلوق: الطيب والبخور.

(٢) فهذا من تقاليد كبراء القوم، لهم خلوات مع خاصة الأصدقاء فى وقت معلوم.

وكان عبدُ الملك هذا مـن جلالة القدّر والتقشف، على حالة مـعروفة، حتى إنه كان يمتنع من منادمة الخليفة، على اجتهاد من الخليفة أن يشربَ معه قَدَحًا واحدًا، فلم يفعل، ترفُّعًا.

فلمَا رأيناه مقبـلاً، أقبل كل واحد منّا ينظر إلى صاحبه، وكـاد جعفر أن تنشقَّ مرارتُهُ غيظًا.

وفهم الرجل حالنا، فأقبل نحـونا، حتى صار إلى الرُّواق الذى نحن فيه، فنزع قَلَنْسُوَتَهُ، فرمى بها مع طَيْلُسانِهِ جانبًا، ثم قال: أطعمونا شيئًا.

فدعـا له جعفـرُ بطعام، وهو مُنتـفخٌ غَيْظًا وغضـبًا، فـأكل، ثم دعا بِرِطلٍ[1] فَشَرِبَهُ.

ثمّ أقبل إلى المجلس الذى كنّا فيـه، فأخذَ بِعُضَادَتَى البابِ، ثم قـال: أشْرِكونا فيما أنتم فيه.

فقال جعفر: ادخل، فدخل، فدعا له بقميص حريرٍ وخَلُوق، فلبسَ، وتخلّق، ثم دعا برِطـلٍ، ورِطلٍ حتى شرِبَ ثلاثة أرطـال، ثم اندفع يُغنينا، فكان -والله- أحسنَنَا غناءً.

فلمـا طابت نفسُ جعـفر، وسُرى عـنه ما كان به، الـتفت إليـه، وقال: ارفع حوائجَك.

فقال: ليس هذا موضع حوائج.

فقال: أقسمُ عليك، لتفعلنّ.

ولم يزل يُلحّ عليه حتى قـال له: أمير المؤمنين واجدٌ[2] علىَّ كما قد علمتَ، فأحبُّ أن تترضاه.

قال: فإن أمير المؤمنين قد رَضِى عنك، فهات حوائجك، كما أقول لك.

---

(١) أى: رطل من النبيذ.

(٢) أى فى نفسه شىء منى، متغير علىّ.

قال: علىّ دَيْنٌ فادِح.

قال: كم مبلغه؟

قال: أربعةُ آلافِ ألفِ درهم.

قال: هذه أربعة آلاف ألفِ درهم، فإن أحببت قبضها، قبضتَها الساعة، فإنه لا يمنعنى من إعطائك إلا أن قَدْرَكَ يجل عندى أن يصلك مِثْلى، ولكنى ضامنٌ لها، حتى تُحمل لك فى غد، من مال أمير المؤمنين، فسَلْ أيضًا.

قال: تُكَلِّمُ أمير المؤمنين حتى يُنَوه باسم ابنى.

قال: ولاه أميرُ المؤمنين مصر، وزوَّجَه ابنته الغالية، ومَهَرَها عنه ألفى ألف درهم.

قال إسحاق: فقلتُ فى نفسى، قد سكِر الرجلُ -يعنى جعفر-.

فلما أصبَحنا، حضرتُ دارَ الرّشيد، فإذا بجعفر بين يديه، ووجدتُ فى الدار جَلَبة، فإذا بأبى يوسف القاضى ونظرائه، وقد دُعِىَ بهم، ثم دُعِى بعبد الملك وابنه، فدخلا على الرشيد.

فقال الرّشيدُ لعبد الملك: إن أمير المؤمنين كان واجدًا عليك، وقد رَضِىَ عنك، وأمر لك بأربعة آلاف ألف درهم، فخذها من جعفر الساعة.

ثم دعا بابنه، وقال: اشهدوا علىَّ أننى قد زوجتُه ابنتى الغالية، ومَهَرْتُها عنه ألفَى ألف دِرهم، ووليته مصر.

فلما خرج جعفر سألتُه عن الخبر، فقال: بكرت إلى دار الرشيد، فحكيْتُ له جميع ما جرى حرفًا حرفًا، ووصفتُ له دخول عبد الملك وما صَنَعَ، فعجب منه، وسُر به.

فقلت له: وقد ضمِنْتُ له عن أمير المؤمنين ضمانًا.

فقال: ما هو؟ فأعلمتُهُ.

فقال: نَفِى له بضمانك، وأمر بإحضاره، فكان ما رأيت.

●●●

## ٤- ثَمَنُ العِناد

حدّثنى شيخٌ من البَصَريين، أثقُ به، قال: عادَلْتُ[١] فلانًا القاضى - إلى الحج.

قال: وتشاجر رجلان، فى الرُّفقة التى كنت فيها من القافلة.

قال: وجذبهما ذلك القاضى إليه، ولم يزل يتوسط بينهما ويترفَّقُ بهما، وقد استعمل كلٌّ واحد منهما اللَّجاج والمُشاحَنَة، وأقاما عليها، وهو يَصْبرُ عليهما، ويقول: اللَّجَاجُ شُؤمٌ، فلا تَستعملاه. ويكرر هذه اللفظة، إلى أن فَصَل بينهما.

فقال لى: أذْكرْنى حديثًا فى اللجاج، جرى على يدى، لك فيه، ولكل مَنْ سَمِعَهُ، أدَبٌ.

قال: فأذكرته بعد وقت.

فقال: كنتُ أتولى القضاء، فى البلد الفلانى، فتقدم إلىّ رجلان، فادعى أحدُهما على الآخر عشرين دينارًا.

فقلت للمدعى عليه: ما تقول؟

فقال: له علىّ ذلك، إلا أنى عَبْدُ لآل فلان، مُكَاتبٌ[٢] مأذون لى فى التَّصرّف، واتّجرْتُ، فَخَسِرْتُ، وليس معى ما أعطيه، وقد عاملنى هذا الرجل سنين كثيرةً، وَربحَ علىّ أضعاف هذه الدنانير مرارًا، فإن رأى القاضى أن يسأله الرّفق بى، فإنى عبدٌ، وضعيفٌ، ولا حِيلة لى.

فسألته أن يَرْفُقَ به، ويُؤَخّرُ، فامتنع.

فقلتُ: قد سمعت.

فقال: ما لى حِيلة.

---

(١) عادله: أى جلس فى مقابله ليوازنه، فوق الجمل.

(٢) العبد المكاتب هو الذى فرض عليه سيده قدرًا من المال، إذا أداه إليه نال حريته، وعُتق.

فقال الرجل: احبسه لى.

فعاد العبدُ يسألنى، فسألتُهُ أن لا يفعل، وبكى العبدُ، فَرَقَقْتُ له، وسألتُ خَصمه أن لا يحبِسَهُ، وأن يُنْظِرهُ [1].

فقال: لا أفعل.

فقال العبد: إن حَبَسَنى أهلكنى، ووالله ما أرجعُ إلى شىء وإنه ليضايقُنى، ويَلجُّ فى أمرى، وقد انتفع منى بأضعاف هذه الدنانير، وورثَ منذ أيام من أخى ألوف دنانير، فأشِير علىّ بمنازعته إلى القاضى فى الميراث، فلم أفعل.

قال: فحين قال ذلك، توجَّه لى وَجْهُ طَمَعٍ فى خلاصه من لجاج ذلك الغريم، وقد كان غاظنى بِلَجاجِهِ ومَحْكِهِ[2].

فقلت: كيف وَرِثَ أخاك، وأردت منازعتَهُ؟

فقال: إن أخى كان عبدًا له، مأذونًا له فى التصرُّف، وكان يتجر ويتصرّفُ، ويؤدى إليه ضريبَتَه، وجمع مالاً وأمتعة، بأكثر من ثلاثة آلاف دينار، ثم مات، ولم يُخلّف أحدًا غيرى، وأنا رجلٌ ضعيف، مملوكٌ ولى ابنان طفلان من امرأة حُرّة، وهما حُران، فأنا أعولهما، وأعول نفسى، وزوجتى، وأؤدى إلى مولاى ضريبته، فطمِعتُ فى أن أنازعه فى الميراث، وآخذ شيئًا أعودُ به على نفسى، وأولادى، وعيالى، فقيل لى: إنك لا ترث، فلم أحب منازعتَه، صيانةً له، وهو الآنُ يضايقنى.

قال: فقلتُ للرجل: هو كما قال: إن أخاه كان عبدك، ومات، وخلفَ عليك تَرِكة قيمتُها ثلاثةُ آلاف دينار؟

قال: نعم.

فقلت له: ولهذا العبد طفلان حُرَّان؟

---

(١) ينظره: يؤجله، أى يؤجل سداد الدّين.

(٢) المحك: والمماحكة: المضايقة.

قال: نعم.

فقلت: قُم، فأخره بالدنانير ولا تُطالبه بها.

فقال: ما أبرَحُ إلا بالدنانير، أو بحبسه.

فقلت: اقبَل رأيى، ولا تَلِجَ [1].

فقال: لا أفعلُ.

فقلت: إنك متى لم تفعل، خرج من يدك مال جليل.

فقال: لا أفعل.

قال: فقلتُ للعبد، قد أذِنْتُ لك أن تتكلَّمَ عن ابنيْك الطفلين، وهما -على مذهب عبد الله بن مسعود، وهو مذهبى- أحقُّ بالميراث من مولاه، وإن كنتَ أنت حيّاً، فإنّك بمنزلة الميت للعبودية، فطالِبْهُ عن ابنيك الحُرَيْن الطفلين بالتركة.

قال: فَطَالَبَهُ بها.

فأحضرَتْ الشهودُ، فأعاد الخصومة، والدعوى، ولم أزل بالمولى، حتى أسمعْتُ الشهودَ إقراره بما كان أقرّ به عندى، ثم حكمتُ للابنين الطفلين بالتركة، وانتزعت جميعَها من يده، وسلّمْتُ إليه منها عشرين دينارًا، لما أقر له العبد به، وجعلتُ ذلك دَيْنًا عليه لابنيْه.

وسلمت مقدارَ ثَمَنِ العبد، من مال الطفلين إلى أمينٍ من أمنائى، وقلت: اشتَرِ أباهُما من مولاه بهذه الدنانير، واعتقْهُ عليهما، فَفَعَلَ.

وجعلتُ باقى مال الطفلين فى يد أبيهما، وأمينٍ جعلته عليه مُشرفًا، وأمرتُ الأب أن يتَّجَر لهما بالمال، ويأخذ ثلثَ الربح، بِحَق قيامه، وحكمتُ بالجميع، وأشهدتُ على إنفاذى الحكم له الشهود.

---

(١) لج، يلج: يعاند ويبالغ فى الخصومة

فقام العبْدُ، وهو فرحان، وقد فرَّجَ الله عنه، وآمنه أن يُحبَس، وعُتِقَتْ رقبتُه، وصار موسرًا.

وقام اللَّجوج خاسرًا حائرًا، وقد أخذ عشرين دينارًا، وأعطى ثلاثة آلاف دينار[1].

●●●

(١) ركبت هذه القصة بذكاء ليحصل الطيب على الفرح والفرج، ويعود الفظ بالخسران، وفيها مصادفات وتعسف نسبى، كزواج العبد من امرأة حرة، وأن يأخذ القاضى بقول عبد الله بن معود فى ميراث العبد المتوفى.

## ٥- يحلم لغيره

كان فى جوار القاضى قديمًا، رجلٌ انتشرتْ عنه حكاية، وظهر فى يده مالٌ جليل، بعد فَقْرٍ طويل، وكنتُ أسمع أن أبا عُمَرَ حَمَاهُ من السلطان، فسألتُ عن الحكاية، فدافعنى طويلاً، ثم حدّثنى، قال:

وَرِثْتُ عن أبى مالاً جليلاً، فأسرعْتُ فيه[١]، وأتلفتُه، حتى أفضيْتُ إلى بيْع أبواب دارى وسقوفها، ولم يَبْقَ لى من الدنيا حيلة، وبقيتُ مدة بلا قُوتٍ إلا من غَزل أمى، فتمنّيتُ الموت.

فرأيتُ ليلةً فى النوم، كأنّ قائلاً يقول لى: غِنَاك بمصر، فاخرج إليها، فَبكرْتُ إلى أبى عمر القاضى، وتوسلت إليه بالجوار، وبخدْمةٍ كانت من أبى لأبيه، وسألتُه أن يزوّدنى كتابًا إلى مصر، لأتصرف[٢] بها، ففعل، وخرجتُ.

فلما حَصَلتُ بمصر، أوصلتُ الكتاب، وسألتُ التصرف، فسدّ اللهُ علىّ الوُجوه حتى لم أظفرُ بتصرف، ولا لاحَ لى شُغْلٌ.

ونَفَدَتْ نفقتى، فبقيتُ متحيرًا، وفكرتُ فى أن أسأل النّاس، وأمدّ يدى على الطريق، فلم تسمح نفسى، فقلت: أخرجُ ليلاً، وأسأل، فخرجتُ بين العشاءَين، فما زلتُ أمشى فى الطريق، وتأبى نفسى المسألة، ويحملنى الجوعُ عليها، وأنا مُمتنع، إلى أن مضى صدْرٌ من الليل.

فلقينى الطائفُ[٣]، فَقَبَضَ علىَّ، ووجدنى غريبًا، فأنكر حالى، فسألنى عن خَبَرى، فقلت: رجلٌ ضعيف، فلم يصدقنى، ويَطَحَنِى، وضربنِى مَقَارِعَ.

فصحتُ: أنا أصدُقُكَ.

فقال: هات.

---

(١) أسرعت فيه: أسرعت فى إنفاقه، أسرفت.

(٢) أتصرف: أوظف.

(٣) الطائف: الحرس الليلى المتحرك، الذى يطوف بالمدينة.

فقصصتُ عليه قِصّتى من أولها إلى آخرها، وحديثَ المنام.

فقال لى: أنت رجلٌ ما رأيتُ أحمقَ منك، والله لقد رأيتُ منذ كذا وكذا سنة، فى النوم، كأن رجلاً يقـول لى: ببغداد فى الشارع الفلانى فى الـمَـحَلّة الفلانية - فذكر شارعى، ومَـحَلّتى، فسكتُّ، وأصغيْتُ إليه- وأتم الشـرطىُّ الحديث فقال: دارٌ يُقال لها: دارُ فلان -فذكر دارى، واسمى- فيها بُستانٌ، وفيه سِدْرَةٌ[1]، وكان فى بُستان دارى سِدْرة، وتحت السدرة مدفونٌ ثلاثون ألف دينار، فامْض، فَخُذْها، فمـا فكرت فى هذا الحديث، ولا التـفتُّ إليه، وأنت يا أحمـق، فارقت وطنك، وجئت إلى مصر بسبب مَنَام.

قال: فَقوى بذلك قلبى، وأطلقنى الطائفُ، فبِتُّ فى بعض المساجد، وخرجتُ مع السَّحَر من مـصر، فقدمْتُ بغداد، فـقطعتُ السِّدْرَة، وأثَرْتُ تحتهـا، فوجدتُ قُمْقُمًا فيه ثلاثون ألف دينار، فـأخذتُهُ، وأمسكتُ يدى، ودبرت أمرى، فأنا أعيش من تلك الدنانير، من فَضْلِ ما ابتعتُ منها من ضيْعة وعَقار إلى اليوم.

●●●

(١) السدرة: شجرة النبق

## ٦- تَوْبَةُ فَتَّان

حدثنى عبيدُ الله بن محمّد الصّـرَوى، عن أبيه، قال: كان يجاورنا ببغداد فتى من أولاد الكتّاب، وَرِثَ مالاً جليلاً، فأتلفه فى القِيان[١]، وأكله إسرافًا، حتى لم يَبْقَ منه شىءٌ، واحتاج إلى نَقْضِ داره، فلم يبق منها غيرُ بيت[٢] يُكنّه.

فحدثنى بعضُ من كان يعاشره وانقطع عنه لما افتقر، قال:

قصدتُه يومًا بعد انقطاعى عنه نحو سنة، لأعرفَ خبره، فدخلتُ إليه، فوجدتُه نائمًا فى ذلك البيت، فى يـومٍ بارد، على حصير خَلَقٍ، قد توطأ قُطنًا كـأنه حشو فِراش، وتغطى بقُطن كان فى لِحاف، فهو بين ذلك القطن كأنه السَّفَرجلُ.

فقلت له: ويحْك، بَلغْتَ إلى هذا الحد.

فقال: هو ما ترى.

فقلت: فهل لك حاجةٌ ؟

قال: أو تقضيها؟

فظننتُ أنه يطلب منى شيئًا أسْعِفُهُ به، فقلت: إى والله.

فقال: أشـتهى أن تحملنى إلى بيت فلانة الـمُغنّيـة، حتى أراها، وهى التى كان يتعشّقها، وأتلف ماله عليها.

وبكى، فَرَحِـمْتُهُ، فـمضيتُ إلى منزلى، فـأتيتُه مـن ثيابى بما لبِسَـهُ، وأدخلتُهُ الحمَّام، وحملته إلى بيتى، فأطعمتُه، وبخَّرتُه، وذهبنا إلى دار المغنية.

فلمـا رأتنا، لـم تشك أن حالهُ قـد صَلُحَتْ، وأنه قد جـاءها بدراهم، فَبَـشتْ فى وجهه، وسألته عن حاله، فَصَدَقَهَا عن حاله، حتى انتهى إلى ذِكْر الثياب، وأنّها لى.

---

(١) القيان: جمع قينة، وهى الجارية المغنية.

(٢) بيت هنا بمعنى: حجرة.

فقالت له فى الحال، قُم، قُم.

فقال: لِمَ؟

فقالت: لئلا تجيء ستى، فتراك، وليس معك شيءٌ، فَتَحْرَدَ[1] علىَّ، لِمَ أدخلتُكَ، فاخرج بَرّا، حتى أصعدَ فأكلمَكَ من فوق، فَخرج، وجلس ينتظر أن تخاطبه من رَوزَنَة[2] فى الدار، إلى الطريق، فأقلبت عليه مَرَقة سِكْبَاج[3]، فصيرته آية ونكالاً.

فبكى، وقال لى: بَلَغَ أمرى إلى هذا؟ أشهِدُ الله، وأشهِدُكَ، أنى تائب.

فضحكتُ منه، وقلت: أى شيء تنفعُكَ التوبةُ الآن وقد افتقرتَ؟

فرددتُه إلى بيته، ونزعْتُ ثيابى عنه، وتركتُه بين القطن، كما كان أولا، وحملتُ ثيابى فغسلتُها وانقطعت عنه، فما عَرَفْتُ له خبرًا.

وبعد نحو ثلاث سنين، بينما أنا ذات يوم بباب الطاق، إذا أنا بغلام يُطرِّقُ[4] لرجلٍ راكب، فرفعت رأسى، فإذا به على بِرْذَوْنٍ فَارِهٍ[5]، بمركب فِضة، خفيفٍ، مليحٍ، وثيابٍ حسنة، وكان أولاً يركب من الدواب أفخرَها، ومن المراكب أثقلها.

فلما رآنى، قال لى: يا فلان، فعلمتُ أن حَالَهُ قد صَلَحَتْ، فقبلتُ فَخِذَهُ.

وقلت: سيدى أبو فلان.

قال: نعم، قد صَنَعَ اللهُ تعالى، وله الحمد، البيت، البيتَ، فتبْعتُهُ إلى منزله، فإذا بالدار الأولة، قد رمَّها، وجصّصَها، من غير بياض، وطبّقها[6]، وبنى فيها

---

(١) تحرد: تغضب وتعاند.

(٢) الروزنة: فتحة فى الجدار، وفى ريف مصر: الناروزة.

(٣) السكباج: اللحم إذا طبخ فى الخل.

(٤) يطرق (بتشديد الراء): يفسح الطريق، وكان هذا شأن الكبراء والأعيان.

(٥) البرذون: نوع من الحمير، وفاره: مرتفع.

(٦) جصصها: دهنها بالجص وهو الجبس، وطبقها: فرش أرضها بالطابوق، وهو الحجر العريض.

مجلسين متقابلين، وخـزائن، ومستراح، وجعل باقى ما كان فيهـا، صَحْنًا كبيرًا، وقد صارت حسنة، غير أنها ليست بذلك الأمر الأول.

فأدخلنى إلى حجرة منها، كان يخلو فيهـا قديمًا، قد أعادَها كأحسن ما كانت، وفيها فُرُشٌ حسنة، وفى داره ثلاثةُ غلمان، قد جعل كل خِدْمتين إلى واحد منهم، وقد أقام على حَـرَمِه خادمًا كان لأبيه، وله سـائِسٌ هو شاكِرِيُّهُ [1]، وشيخٌ بوابٌ كان يَصحبُه قديمًا، ووكيلٌ يتسوَّق له.

فجلس، وأجلسنى، وأحـضر فاكـهة قليلة، فى آلةٍ مقـتصدة مليحـة، وجاءوا بعدها بطعـامٍ نظيف، كافٍ، غير مُـسرِفٍ ولا مقصّـر، فأكلنا، ثم نام، ولم تكن تلك عادتُـهُ، ومُدَّتْ ستـارة، وأحَضـرت مَشامٌّ ورياحين، فى صَـوَانى وزِبديَات، والجميع متوسطٌ ملـيح، غيرُ مُسرف، فانْتبه، فصلى، وتبـخّرَ بقطعة نَدّ، وبخّرنى بقطعة عُـودٍ مطرى، وقدم بين يديه صِـينية فيـها من مطبوخ الـعِنب شىءٌ حسن، وقدم بين يدى صينية فيها نبيذ التمر، جيد.

فقلت: يـ سيدى، ما هذه الترتيبات التى لست أعرفُها.

فـقال: دَعْ مـا مضى، فـإن الحال لا تحـتـملُ الإسراف، فـأقبَلَ يشـرب، وأنا أساعدُه، فتغنى من وراء الستارة، ثلاثُ جوارى فى نهاية طيب الغِناء، كلُّ واحدةٍ منهن أطيبُ من التى أنفَقَ عليها ماله.

فلما طابت أنفسُنا، قال لى: تَذْكُرُ أيَامَنا الأولة؟

قلت: نعم

قال: أنا الآن فى نعمـة متوسِّطة، وما قد أفدته من العـقل، والعلم بأمر الدنيا وأهلها، يُسلينى عـما ذهب منى، وهو ذا ترى فُرُشى، وآلتى ومَـرْكوبى، وإن لم يكن ذلك بالعظيم الـمُفْرِط، ففيـه جمال، وبلاغ، وتنعّمٌ، وكفاية، وهو مُغْنٍ عن

---

(١) الشاكرى: الذى يقوم على رعاية حيوانات الركوب.

الإسراف، والتخرق، والتبذير، وقد تخلّصْتُ من تلك الشدة، تذكر يوم عاملتْنى فلانةُ المغنية، بما عاملتْنى؟

قلت: نعم والحمد لله الذى كشف ذلك عنك، فمن أين هذه النعمة؟

قال: مات مَوْلى[1] لأبى، وابنُ عم لى، فى يومٍ واحد بمصر، فحصل لى من تركتهما أربعون ألفَ دينار، فوصل أكثرُها إلىّ، وأنا بين القُطن كما رأيتنى، فَحَمَدْتُ الله، واعتقدتُ التوبة من التبذير، وأن أدبر ما رُزِقْتُهُ، فعَمّرْتُ هذه الدار بألفِ دينار، واشتريت الفُرُش، والآلة، والجوارى بتسعة آلاف دينار، وسلمت إلى بعض التجار الثقات، ألفى دينار، يتجرُّ لى بها، وأودعْتُ بطن الأرض عشْرة آلاف دينار، للحوادث، وابتعْتُ بالباقى ضيْعة تُغلُّ لى فى كل سنة نفقتى هذه التى شاهدتها، فما أحتاج إلى قرض، ولا استزادة، ولا تُقبل غلة، إلا وعندى بقية من الغلة الأولة، فأنا أتقلب فى نعمة الله، عَزّ وجَلّ، كما ترى، ومن تمام النعمة، أنى لا أعاشِرُكَ، ولا أحدًا ممن كان يُحَسّن لى السَّرَفَ، يا غِلمان، أخْرجوه.

قال: فأخرجْتُ، فوالله ما أذِنَ لى بعدَها فى الدخول عليه.

●●●

(١) المولى: العبد.

## ٧- حظ أو تدبير؟

حدّثنى أبو علىٌّ بن أبى عبد الله الحسين بن عبد الله المعروف بابن الجَصّاص الجوهرى، قال: سمعتُ أبى يحدث، قال:

لما نكبنى المُقتدر، وأخذ منى تلك الأموال العظيمة، أصبحتُ يومًا فى الحبس آيَسَ ما كنتُ من الفَرَج.

فأتانى خادم، فقال: البُشْرَى.

فقلت: ما الخبر؟

قال: قم، فقد أطْلِقْتَ.

فقمتُ معه، فاجتاز بى فى بعض الطُرق فى دار الخلافة، يريد إخراجى إلى دار السيدة[1]، لتكون هى التى تطلقنى، لأنها هى التى شفعت فىّ، فوقعت عينى فى جَوَازى على أعْدَال[2] خيش لى أعرفها، وكان مبلغها مائة عِدل.

فقلت للخادم: أليس هذا من الخَيْش الذى حُمِلَ من دارى؟

قال: بلى.

فتأمّلتُه، فإذا هو بِشَدّه وعلاماته، وكانت هذه الأعْدَال قد حُملت إلىّ من مصر، وفى كل عِدل منها ألفُ دينار، من مالٍ كان لى بمصر، كتبتُ بحَمْله، فخافوا عليه من الطريق، فجعلوه فى أعدال الخَيْش، لأنها مما لا يكاد يحمله اللصوص، لو وقعوا عليه، فلا يفطنون لما فيه، فوصلَتْ سالمة، ولاستغنائى عن المال، لم أخرجْهُ من الأعْدَال، وتركتُهُ بحاله فى بيت من دارى، وأقفلتُ عليه، وتَوَخَّيتُ أيضًا بذلك سَتْر حديثه، فتركته شهورًا على حاله لأنقله فى وقتٍ آخر كما أريد.

---

(١) السيدة: يعنى أم الخليفة.

(٢) العدل: حمل البعير.

وكُبِسْتُ [1]، فأخذ الخيشُ فى جملة ما أخِذَ من دارى، ولخِسّتِهِ عندهم تهاوَنُوا به، ولم يعرف أحد ما فيه، فطُرِحَ فى تلك الدار.

فلما رأيته بشده، طَمِعْتُ فى خلاصه، والحيلة فى ارتجاعه فسكتُّ.

فلما كان بعد أيام من خروجى، راسلتُ السيدة، ورقّقتُها، وشكَوْتُ حالى إليها، وسألتُها أن تدفع إلىَّ ذلك الخيْش، لأنه لا قدْرَ له عندهم، وأنا أنتفع بثمنه.

قال: فاستَحْمَقَتْنى، وقالت: أىُّ شىء قَدْرُ الخيش؟ ردوه عليه، فسُلم إلىّ بأسْرِهِ.

ففتحُته، وأخذتُ منه المائة ألف دينار، ما ضاع لى منها دينارٌ واحد، وأخذتُ من الخيْش ما أحتاج إليه، وبِعتُ باقيه بجُمْلةٍ وافرة.

فقلت فى نفسى: قد بَقِيَتْ لى بقَية إقبال جيدة.

●●●

---

(1) الكبس: المصادرة والحبس، وكان السبب هو مساعدة الجصاص لابن المعتز فى ثورته.

## ٨- لُعبةُ المُصادَفَة

وبلغنى عن رجل من أهل كَوْثى[١]، قال:

كان يتقلد بلدنا رجلٌ عامل من قِبَل أبى الحسن بن الفُرات، فى بعض وزاراته، فافتتح الخَراج واشتدّ فى المُطالبة.

وكان فى أطراف البلد قومٌ من العرب قد زرعوا من الأرض ما لا يتجاسر الأكَرَةُ[٢] على زراعته، وكان العمّالُ يُسامحونهم ببعض ما يجب عليهم من الخَراج.

فطالبهم هذا العاملُ بالخَراج على التمام أسْوةً بالأكَرَة، وأحْضَرَ أحدهم فحقّق عليه المطالبة، وهو مُمتنع، فأمر بصفْعه، فصُفِعَ حتى أدى الخراج، وانصرف، فشكا إلى بنى عمه، فتوافقوا على كبس العامل ليلاً، وقتله، وراسلوا فى ذلك غيرَهم من العرب، واتّعدُوا لليلةٍ بعينها.

فلما كان اليومُ الذى تليه تلك اللّيلة، وَرَدَ إلى النّاحية عاملٌ آخر، صارفًا للأول، فَقَبَض عليه، وصفَعَه، وضربه بالمقارع، وأخذ خطه بمال، وقيده، وأمر بأن يُحمَل إلى قرية أخرى على فراسخ من البلد، فحُبس فيها، ووُكِّلَ به عَشَرَةٌ من الرَّجّالة، وسيّرَهُ مرةً ماشيا، ومرة على حمار من حمير الشّوْك، فكاد مما لحقه أن يَتْلف، وحَصَلَ فى تلك القرية[٣].

وكان له غلام قد ربّاه، وهو خَصِيصٌ به، عارفٌ بجميع أموره، فهرب عند ورود الصّارف، فلما كان من الغد، لم يشعر المصروف المحبوسُ إلا بغلامه الذى ربّاه قد دخل عليه، وكان مجيئُهُ إليه أشد عليه من جميع ما لحقه إشفاقًا على الغلام، وعلى نفسه مما يعرفُهُ الغلامُ، أن يكون قد دل عليه.

---

(١) منطقة بجنوب العراق.

(٢) الأكرة: الزرّاع المستأجرون، والعرب هنا يقصد بهم البدو (الأعراب) يزرعون ولا يدفعون.

(٣) العامل الجديد أسرف فى معاقبة العامل المعزول، فكانت فى انتظاره مفاجأة.

فقال له: ويحُك، وقعت فى أيديهم؟

فقال له الغلام: مَنْ هُم؟ هاتِ رجلك حتى أكسر قيودك، وتقوم فتدخل بغداد.

فقال له: وأين الرَّجَّالةُ الموكلون بى؟

فقال: يا مولاى قد فرج الله عَزَّ وجَلَّ عنك، وهربت الرجالة.

قال: فما السّبب؟

قال: إن الأعراب الذين كنت صفعت منهم واحدًا، وطالبتهم بالخراج، كبسوا البارحة دار العَمَالة، وعندهم أنك أنت العامل، وكانوا قد عملوا على قتلك، ولم يكن عندهم خبرُ صَرْفك، ولا خبر ورود هذا العامل، فقتلوه على أنه أنت، وقد هرب أصحابُه، وأهلُ البلد كافة، فقم حتى نمشى إلى بغداد، لا يبلغهم خبرُ كونك هنا، فيقصدوك، ويقتلوك.

فكسر القيد، وقام هو وغلامه، يمشيان على غير جَادَّةٍ[1]، إلى أن بَعُدا، ودخلا قرية، واستأجرا منها ما ركبا إلى بغداد.

ولقى المصروفُ الوزير، وشنّعَ على المقتول، وقال: قد أفسد الناحية، وأثار فتنةً مع العرب، فأقره الوزير على الناحية، وضم إليه جيشًا.

فعاد إلى كوثى، وتحصن بالجيش، وساس أمره مع العرب، إلى أن صالحهم، وحط لهم من الخَراج عما كان طالبَهم به، وأجرى أمرهم على رُسُومهم، وسكنوا إليه وسكَنَ إليهم، وزال خوفُه واستقام له أمرُ عمله.

●●●

(١) الجادة: الطريق، أى يتجنبان الطرق حتى لا يراهما أحد.

## ٩- الفأر والأسد

حدّثنى علىّ بنُ هشام، قال: سمعتُ حامد بن العبّاس[١]، يقول: رُبما انتفع الإنسان فى نَكْبته بالرجلِ الصغير، أكثر من منفعته بالكبير، فمن ذلك: أن إسماعيل بنَ بُليل، لما حَبَسنى، جعلنى فى يد بواب كان يَخدمُه قديمًا.

قال: وكان رجلاً حراً، فأحسنْتُ إليه، وبَرَرْتُهُ، وكنت أعتمد على عناية أبى العباس بن الفُرات[٢] بى، وكان ذلك البواب، لقديم خدمته لإسماعيل، يدخل إلى مجالسه الخاصة، ويقفُ بين يديه، ولا يُنْكِرُ عليه ذلك، لِسالف خدمته.

فصار إلىّ فى بعض الليالى، فقال: قد حَرَدَ الوزيرُ على ابن الفرات بسببك، وقال له: ما يكسرُ المال على حامدٍ غيرُك، ولابد من الجد فى مطالبته ببقى مُصادرته، وسيدعوك الوزير فى غدٍ إلى حضرته ويهدّدُك.

فَشَغَلَ ذلك قلبى، فقلت له: هل عندك من رأى؟

قال: نعم، تكتب رُقْعَةً إلى رجل من معامليك تعرف شُحَّه وضيقَ نَفْسه، تلتمسُ منه لعيالك ألفَ درهم، يُقرضُك إياها، وتلتمسُ منه أن يجيبك على ظَهْر رُقعتك، لترجع إليك، فإنه لشُحِّه، يردُّك بعُذر، وتحتفظ بالرُّقعة، فإذا طالبك الوزير أخرجتَها له على غيرِ مُوَاطأة[٣]، وقلت له: قد أفْضَتْ حالى إلى هذا، فلعل ذلك ينفعُك.

قال: ففعلتُ ما قاله، وجاءنى الجوابُ بالرد كما خَمّنا، فشدَدْتُ الرقعة معى. فلما كان من الغد، أخرجنى الوزير، وطالبنى، فأخرجْتُ الرُّقعة، وأقرأتُهُ إياها، ورَقَّقْتُهُ، وتكلمتُ بما أمكن، فاستحيا، وكان ذلك سبب خِفّة أمرى، وزوال محنتى.

فلما تقلّدتُ فى أيّام عبيد الله بن سُليمان ما تقلّدت، سألتُ عن البواب، فاجتذبْتُه إلى خدمتى، وكنت أجْرى عليه خمسين دينارًا فى كل شهر وهو باقٍ إلى الآن.

---

(١) حامد بن العباس بلغ منصب الوزارة، وابن بليل وزير أيضًا.

(٢) هنا تظهر محاور السلطة أو مراكز القوى، وكيف يتألفون، وأيضًا يؤلف قلب خادم عند خصمه العنيد.

(٣) وكان الأمر حدث بالمصادفة لا المواطأة (التواطؤ).

## ١٠- سَيْكُولُوجِيَةُ المُواجَهَة

أخبرنى محمّدُ بنُ الحسن بن المظفّر، قال: أنبأنا أبو عمر محمد ابن عبد الواحد، قال: أخبرنى النورىُّ الصوفى[١]، قال:

لما كانت المحنة، ورُميتُ أنا وجماعةٌ من الصوفية بالكفر، أخذْنا، فأودعْنا المُطبقَ أيّامًا، ثم عُرضْنا على ابن الشّاه[٢]، وكان الوالى، وأغْرى بسفْكَ دمائنا، فعمل على ذلك، وأخرجنا للمسائلة، وترديد العذاب، وإمراره علينا قبْل القتل، وكنا تعاقدْنا أن لا نتكلم حتى يكفينا صاحبُ الأمر.

فقال للرقام: أنت القائل: إن قولى بِسْم الله، لُجَّةٌ من نور؟

قال: فسكَتَ، على العَقْد.

وحضر من ذوى الأقدار والمنزلة من استعطف ابن الشاه علينا، وأشار عليه بالتوقف فى أمرنا، والزيادة فى استيضاح ما قُرِفْنا به.

فقال ابنُ الشاه للرقام: أنت صوفىّ، ولعلك تأولت قولك «بسم اللهِ» نورًا، وقولك «الحمد للهِ»، بعد فراغك، نورًا.

فصاح الرّقام صيحة عظيمة، لحَنْتَ [٣] أيها الأمير.

قال النّورى: فوالله لقد أضْحكَنى على ما بى.

فقال له الأمير: قد صِرْتَ تنظرُ فى النحو بعدى، حتى صرتَ تعرف اللّحْنَ من الصواب؟

---

(١) سمى النورى لما فى وجهه من إشراق ونور.

(٢) ابن الشاه قائد قطاع من شرطة بغداد.

(٣) اللحن فى اللغة هو الخطأ، وهكذا فهمها أمير الشرطة، ولكن الرقام الصوفى عبث به حين ادعى أن لها معنى آخر عند الصوفية.

فقـال له: حاشـاك أيّها الأمـير من اللّحْن الذى هو الخطأ، وإنما عَنَيْتُ بـقولى «لحَنْتَ»، أى فَطِنْت، بمعنى الصوفية.

فقال ابن الشّاه: فى الدنيا أحدٌ يَرْمى مثل هذا وأضرابه بالزندقة؟

وأمر بِتَخْلية سبيلنا.

فتخلصْنا مما كنا فيه، ومما نُحاذره، وكُفِينا بأضعف الأسباب وأيسرها.

●●●

## ١١- الوَهْمُ والحقيقةُ

حدثنى أبو محمد: عبد الله بن حَمْدون النديم، قال:

كان المعتمدُ مع سماحة أخلاقه، وكثرة جوده، وسخائه، شديد العربدَة على نُدمائه إذا سكِر، لا يكاد يسلم له من العربَدة مجلسٌ إلا فى الأقل، فاشتهى يومًا أن يصطبح على أترُج، فاتُّخذ له منه شىء كثير، مُفْرطُ العدد، وعُبى، وحُزم بعضُه، فاصطبح عليه، ولم يَدَعْ شيئًا من الخلع والصِلات والحِمَلان[1]، إلا وعمله مع ندمائه فى ذلك اليوم، وخصنى منه بالكثير، وكان كثير الشرب، وكانت علامته إذا أراد أن ينهض جلساؤُه، أن يلتفت إلى سرير لطيف، كان إذا جلس يستند إليه، ويَشيل رجليه، كأنه يريد أن يصعَدَ، فيقومُ جلساؤه، فإذا كان يريد النوم صَعدَه، فنام، وإن لم يُرد النوم، رد رِجْله، إذا قمنا، وأتم شُربه مع بعض خدمه، أو حَرَمه.

فلما كان ذلك اليوم، جلسنا بحضرته نهارَنا أجمع، وقطعةً من الليل، ثم ردَّ رجله إلى السرير فى أول الليل، فقمنا، وانصرف الجلساءُ إلى حجرة مرسومةٍ بهم، وانصرفْتُ إلى حجرة مرسومةٍ بى من بينهم.

فلما انتصف الليل، إذا بالخدم يدقون باب حجرتى، فانتبهْتُ مرعوبًا، فقالوا: أجب أمير المؤمنين.

فقمتُ: وقلتُ: إنا لله وإنّا إليه راجعون، مضى يومُنا وبعضُ ليلتنا، أحسنَ مُضِىّ، وقدّرْتُ أنى أفلتُّ من عَرْبَدَتِه، فقد عَنَّ له أن يُعَربد علىّ، فاستدعانى فى هذا الوقت.

فأتيتُه وأنا فى نهاية الجَزَع، أفكّرُ كيف أشاغلُهُ عن العربدة، إلى أن صِرْتُ بحضرته.

---

(١) الحملان: الدواب ومنها الخيل، وكل ما يحمل.

فلما رآنى قائمًا لم يَستَجلِسْنى، وقال لخادمه: علىّ بصاحب الشُّرطة السّاعة.

فمتُّ جَزَعًا، وقلتُ فى نفسى وأنا واقفٌ بين يديه: لم تَجْر عادتُه فى العربدة باستدعاء صاحِب الشُّرطة، وما هذا إلا لِبَلِية قد احتيل بها علىَّ عنده.

فأقبلتُ أنظرُ إليه طمعًا فى أن يفاتَحنى بكلمة، فأداريه فى الجواب، وهو لا يرفع رأسَه عن الأرض، إلى أن جاء صاحبُ الشُّرطة، فرفع رأسه إليه، وقال له: فى حَبْسك رجلٌ يُعرف بفلان ابن فلان الجَمّال؟ (وفى رواية: يُعرف بمنصور الجمّال)؟

قال: نعم.

قال: أحْضِرْنيه الساعة.

فمضى ليُحضره، فسَهُلَ علىّ الأمرُ قليلاً، ووقفتُ، وهو لا يخاطبنى بشىء، إلى أن أحضِرَ الرجل.

فقال له المعتمد: من أنت؟

قال: أنا منصور ابن فلان الجمّال.

قال: وما قصتُّك؟

قال: أنا مظلوم، حُبِسْتُ منذ كذا وكذا سنة، وأنا رجل من أهل الجبال، وكان لى جمال أعيش من فَضْل أُجرتها.

وكان يتقلد بلدَنا فلان العاملُ، فاستدْعى إلى الخضْرة، فأخذ جمالى غصبًا يستعين بها فى حَمْل متاعه.

فتظلمت إليه وصحتُ، فلم ينفعنى ذلك، وقال: إذا صرتُ بالحضرة رَدَدْتُها عليك.

فخرجتُ معه لئلا تذهب الجمال أصلاً، فكنت مع جمالى أخدمُها فى الطريق.

فلما قربْنا من حلوان[١] سل الأكرادُ منها جملاً محمّلاً، فبلغه الخبر، فأحضرنى، وقال: أنت سرقتَ الجمل بما عليه، فقلتُ: غلمانُك يعلمون أن الأكرادَ سَلُّوهُ.

فقال: الأكراد إنّما جاءوا بِمُوَاطأةٍ منك، ثم أمر بضربى، وتقييدى، وطَرْحى على بعض جمالى.

فلما وَرَدْنا الحضرة، أنفذْتُ إلى الحبس، وأُخَذَ الجمال، ولم يكن لى متظلّم، ولا مذكّر ولا متكلّم، فطال حبسى، وطالت بى المحنة إلى الآن.

فقال لبعض الخدم: امْضِ الساعة إلى فلان العامل، واقعد على دماغه، ولا تَبْرَحْ، أو يَرُدُّ عليه جماله أو قيمتها على ما يريد، فإذا قبض ذلك، فاحمله إلى الخزانة، واكْسُهُ كُسْوَةً حسنةً، وادفع إليه كذا وكذا ديناراً واصرفه مصاحَبًا.

ثم قال لصاحب الشُّرطة: فى حبسك رجل يُعرف بفلان ابن فلان الحدّاد؟ قال: نعم، قال: أحضرنيه الساعة، فأحْضَرَه.

فقال له: ما قصتُّك؟

قال: أنا رجل حُبِسْتُ بظلم، أنا رجل من أهل الشام، وكانت لى نعمة فزالت، فهربتُ من بلدى، واتّصلتْ محنتى إلى أن وافيْتُ الحضرة طلبًا للتصرّف[٢]، فتعذّر علىّ حتى كدت أتلفُ جوعًا.

فسألتُ عن عملٍ أعمله ليلاً لأتوفر نهاراً على طلب التصرف، وأنفق فى النّهار ما أكسبه ليلاً، فأرْشدْتُ إلى حدّاد يعمل ليلاً، فقصدتُه، فاستأجرنى بِدِرْهَمٍ فى كل ليلة، وكنت أعمل معه، وكان معه غلامٌ آخر يضرب بالمطرقة، فأفسد ذلك الغلام على الحدّاد نعلاً كان يَضْربُها، فاغتاظ عليه، ورماه بالنعل الحديد على قُلّته[٣]، فَتَلِفَ للوقت، فهرب الحدّاد، وبقيتُ أنا فى الموضع متحيّرًا لا أدرى إلى

(١) حلوان فى بلاد فارس.

(٢) طلبًا للتصرف: بحثًا عن عمل.

(٣) القلة: القمة، وهنا: ضربه على قمة رأسه.

أين أمضى، وأحسّ الحارسُ فى الحال بما رَابَهُ فى الدُّكان، فهجم علىَّ فوجدنى قائمًا، والغلام ميتًا فلم يشك أنى القاتل، فقبض علىّ ورفعنى، فحُبِسْتُ إلى الآن، فقال لصاحب الشرطة، خل عنه.

وقال لخادم آخر: خُذْهُ فغيّر حاله، وادفع إليه خمسمائة دينار، ودَعْهُ ينصرف مصاحَبًا.

ثم رفع رأسه إلىّ، وقال: يا ابن حَمْدون، الحمدُ لله الذى وفّقنى لهذا الفعل.

ففرّج عنى، فقلت: كيف تكلّف أميرُ المؤمنين النّظر فى هذا بنفسه، فى مثل هذا الوقت؟

فقال: ويحُك إنى رأيت فى منامى رجلاً يقول لى: فى حبسك رجلان مظلومان، يقال لأحدهما: منصور الجمال، والآخر: فلان ابن فلان الحدّاد، فأطلقْهما السّاعة وأحسنْ إليهما وأنصفْهما، فانتبهتُ مذعورًا، ثم نِمْت.

فما استثقلتُ حتى رأيتُ الشّخص بعينه، يقول لى: ويلُك، آمرك أن تُطلقَ رجلين مظلومين فى حبسك، قد طال مُكْثُهُما، وأن تنصفهما وتحسن إليهما، فلا تفعل، وترجع تنام؟ لقد هممتُ أن أوجِعَكَ، فكاد يمد يده إلىّ.

فقلت له: يا هذا من أنت؟

فقال: أنا محمّدٌ رسولُ الله، فكأنى قبّلتُ يده، وقلت: يا رسول الله، ما عرفتك، ولو عرفتك ما تجاسرتُ على تأخير أمرك.

قال: قم: فاعمل فى أمرهما السّاعة، بما أمرتُك به، فانتبهتُ مذعورًا، فاستدعيتُك لتشاهد ما يجرى.

فقلت: هذه عنايةٌ من رسول الله ﷺ بأمير المؤمنين، واهتمام بما يُصْلحُ دينَه، ويثبتُ مُلكه، ومِنّةَ عظيمة عليه، لله عَزّ وجَلّ ولرسوله ﷺ.

فقال: امض فقد أزعجناك، فعدتُ إلى حجرتى[1].

(١) ولم يتعجب النديم من أمر خليفته الذى نام سكران، كيف رأى رسول الله فى المنام؟!

فلما كان من الغد عشيّاً، دخلتُ إليه وهو جالس للشرب على الرسم، فأحببْتُ أن أعرِّفَ الجلساء ما جرى البارحة، ليُسَرَّ هو بذلك، وكنتُ أعرف من طبعه أنه يحب الإطراء والمدح، ونَشْرَ ما هذا سبيله، فإنّه إذا عمل جميلاً أكثر من ذِكْره، وتبجّح به، وإن كان صغيراً.

فقلت له: إن رأى أميرُ المؤمنين أن يخبر خَدَمَهُ، بما كان من المُعجزة البارحة، وعناية رسول الله ﷺ بخلافته.

فقال: وما ذاك؟

فقلت: إحضارى البارحة، وإحضار صاحب الشُّرطة، والجمال، والحدّاد، ورؤياه النَّبى ﷺ، وما أمره به فيهما، وما تقدم به إلى أمير المؤمنين من إنصافهما.

فقال: والله ما أذكر من هذا شيئًا، وما كنتُ إلا سكران، نائمًا طول ليلتى، وما انتبهتُ.

فقلت: بلى يا سيدى.

فتنكّر، وقال: يا ابن حَمْدون قد صرت تغالطنى وتخادُعنى بالكَذب؟

فقلت: أعيذُ أمير المؤمنين بالله، هذا أمر مشهور فى الدار عند الخدم الخاصة وصاحب الشُّرطة نفسه، وقصصتُ عليه القصّة، وشرحتها.

فاستدعى الخدم، فتحدثوا بمثل ما ذكرتُه، فأظهر تعجّبًا شديدًا، وحلف بالله العظيم، وبالبراءة من رسول الله ﷺ، وبالنفى من العبّاس، أنه لا يذكر شيئًا من ذلك، ولا يعلم إلا أنه كان نائمًا، ولا رأى منامًا، ولا انتبه، ولا جلس، ولا استدعى أحدًا، ولا أمر بأمْرٍ.

فما رأيت أعجبَ من هذا المنام والحال، ولا أطرف من هذا الاتفاق فى نسيانه بعد ذلك[1].

●●●

(١) وهنا لا نعرف يقينًا من الذى كان يحلم، الخليفة، أم النديم؟! وما حدود الوهم مع الحقيقة؟!

## ١٢- لصّان، تائبٌ.. وخائبٌ

حدّثنى عَبيْدُ الله بن محمد الصَّرَوى، قال: حدّثنى بعض إخوانى:

أنّه كان ببغداد رجلٌ يطلب التلصّصَ فى حَدَاثَته، ثم تاب وصار بَزَازًا[١].

قال: فانصرف ليلةً من دكانه، وقد أغلقه، فجاء لصٌّ متزى بزى صاحب الدكان، فى كُمِّه شمعة صغيرة، ومفتاحٌ، فصاح بالحارس، وأعطاه الشمعة فى الظُّلمَة، وقال: اشعلها وجئْنى بها، فإن لى فى هذه الليلة فى دكانى شُغْلاً.

فحضر الحارسُ وأشعلَ الشمعة، وركَب اللصُّ المفاتيح على الأقفال ففتحها، ودخل الدكان.

فجاء الحارس بالشمعة مشعلة، فأخذها منه وهو لا يتبين وجهه، وجعلها بين يديه، وفتح سَفَطَ[٢] الحساب، وأخرج ما فيه، وجعل ينظر فى الدفاتر، ويورى بيده أنه يحسب، والحارِس يطالعه فى تردده، ولا يشك فى أنه صاحبُ الدكّان.

إلى أن قارب السَّحَر، فاستدعى اللصُّ الحارس، وكلمه من بعيد وقال له: اطلب لى حمالاً.

فجاء بحمال، فحمل عليه من مَتَاع الدكّان أربَع رُزَم مُثَمّنَة[٣]، وأقفل الدكّان، وانصرف ومعه الحمَّال، وأعطى الحارس درهمين، فلمَّا أصبح الناس، جاء صاحب الدكّان ليفتحَه، فقام إليه الحارس يدعو له، ويقول: فَعَلَ اللهُ بك وصَنَعَ، كما أعطيتنى البارحة الدرهمين.

فأنكر الرجل ما سمعه، ولم يَرُدّ جوابًا، وفتح دكانه، فوجد سَيَلان الشمعة، وحسابه مطروحًا، وفقد الرُّزَمَ الأربع، فاستدعى الحارسَ وقال له: من كان الذى حمل معى الرزم البارحة من دكّانى؟

فقال له الحارس: أليس استدعيْتَ منى حمَالاً. فجئتك به، فحملها معك؟

قال: بلى، ولكنى كنت ناعسًا مُتَنَبْذًا[٤]، وأريد الحمّال، فجئنى به.

---

(١) البزاز: تاجر الحرير.

(٢) السفط: الوعاء أو الكيس أو «الدرج».

(٣) مثمنة: غالية الثمن، قيّمة.

(٤) متنبذًا: شارب نبيذ.

فمضى الحارسُ فجاءه بالحمّال، اغلق الرجلُ الدكان، وأخذ الحمّال معه، ومشى، وقال: إلى أين حملت الرُّزم البارحة، فإنى كنتُ متنبذًا.

قال: إلى المشَرْعَة الفلانية، واستدعيت فلانًا الملاح، فركبت معه.

فصَعَدَ الرجلُ المشرعة، فسأل عن الملاح فَدُل عليه وركب معه. وقال: أين أوصلت اليوم أخى الذى كان معه الأربعُ رُزَمٍ؟

قال: إلى المشْرعة الفلانية.

قال: أطرحنى إليها، فطرحه.

قال: ومن حَمَلها معه؟

قال: فلان الحَمّال.

فدعا به، ولطَّفه، وقال: أين حملتَ الرزم الأربع البارحة؟ واستدله برفق وأعطاه شيئًا، فجاء به إلى باب غرفة، فى موضعٍ بعيدٍ عن البلد، قريبٍ من الصحراء، فوجد الباب مُقفلاً.

واستوقف الحمّالَ إلى أن فَشَّ القُفْل وفَتَحَ الباب، ودخل، فوجد الأربع رُزَمٍ بحالها، وإذا فى البيت بَرْكَان[1] مُعلَّق على حبْل، فلفّ الرُّزَمَ فيه. ودعا الحمّال فحملها.

فحين خرج من الغرفة، استقبله اللصّ، وفهم الأمر، فاتبعه إلى الشط، فجاء إلى المشْرعة، ودعا الملاح ليعْبر.

فدعا الحمّالُ من يَحُطّ عنه، فجاء اللصُّ، فحطّ عنه، كأنه مجتازُ متطوع، فأدْخل الرزم إلى السفينة مع صاحبها، ثم جعل البَرْكان على كتفه، وقال للتاجر، يا أخى، أستودعُكَ الله، فقد استرجعت رُزَمَكَ، فدع كِسائى.

فضحِك منه وقال: انزل ولا خوف عليك.

فنزل معه، فاستتابه، ووَهَبَ له شيئًا، وصَرَفَهُ.

●●●

(١) البركان: رداء يشبه العباءة أو المعطف.

## ١٣- فَرَجٌ أمْ جَرِيمة؟!

حدّثنى عبيدُ الله بن محمد الصّرَوى، قال: حدّثنى أبى، قال:

كان فى جوارنا بوَاسطَ، شـابٌ أتلف ماله فى اللّعب. فافتقر فـقرًا شديدًا، ثم رأيتُه بعد ذلك بمدة، وقد أثْرى، وصَلُحَت حاله، وأقبل على شأنه.

فقلت له: ما سبب هذا؟

فدافعنى، ثم قال: أحدِّثك، وتكْتُمُ علىّ!

فقلت: نعم.

فقال: إن الفقر بلغ بى إلى حـالٍ تمنّيْتُ معها الموت، وولدت امرأتى ذات ليلة، وكانت ليلة العيد، فلم يكن مـعى ما أشترى لها ما يُمسك رَمَقَـهَا، فخرجتُ على وجهى، أطلب من أتصدّقُ منه شيئًا أعودُ به إلى امرأتى.

فأمضيـتُ إلى زُقاقٍ طويل لا أعرفه، فدخلتُ، فإذا هو لا يَنفُـذ، وإذا فيه بابُ دارٍ مفتوحٌ، ومستراح.

فدخلتُ الدار بغير إذن، فإذا برجلٍ يطبُخ قِدْرًا، فصاح علىّ، وقال: من أنت، ويلك؟ فقصصتُ عليه خَبَرى.

فقال: إمض إلى ذلك البيت[1]، واجلس إلى أن أفْرُغَ من القِدْر، فأعطيك منها مع الخبز شيئًا تحمله إلى امرأتك، ونفقة تكفيك أيامًا.

فدخلتُ البيت، فرمى إلىّ كِساءً، وقال: تغط به، ونَم ساعة.

وكانت ليلةً باردة، وكنتُ بقميص واحد، فـتغطيتُ بالكِساء، وانضَجَعْتُ، ولم يدخل عينى النومُ، لما بى من الجوع والغم.

فمـا لبثت أن جـاء رجل عُريان، فدخل وعلى رأسـه شىءٌ ثقيل، فـقام الذى يطبخ، فأغلق الباب، وأنزل ما كان على رأسه.

---

(١) البيت هنا بمعنى الحجرة، أما مجموع الحجرات فهى الدار.

وقال له: ويلك، غبتَ، حتى أيِسْتُ منك.

فقال: كنت يومى وليلتى، مختبئًا خلفَ حَطَبٍ لهم، حتى تمكّنتُ من أخذ هذه البدرة[1]، وما أدرى أدنانيرُ هى أم دراهم؟ وأنا ميتٌ جوعًا. فأطعمْنى شيئًا.

قال: فأخذ الرجل يغرف من القدر، ومضى العُريان فلبِس شيئًا، وجاء إلى الآخر، وقد غَرَف، فجعلا يأكلان، وقد خرجتْ نفسى فزعًا.

فلما أكلا، أخرجا شرابًا، وجعلا يشربان، وأنا مُتَحَيِّرٌ لا أدرى ما أصنع، ولست أجترئ أطلبُ من الرجل شيئًا.

وأقبل العُريان يشرب أكثرَ من الآخرَ الذى كان يطبُخ، وجعل الذى كان يطبخ، يقول له: استكْثِرْ من الشرب لتدفأ، إلى أن سكِر العُريانُ، ونام.

فقام الأوّل، فطاف فى الدّار، ثم جاءنى فكلّمنى، فسكتُّ، خوفًا من أن يعلمَ أنّى قد علِمْتُ بقصّتهما، فيقتلنى، فظنّ أنّنى قد نِمْتُ.

فمضى إلى النّائم، فذبحه، ثمّ أمسكه حتّى مات، ثمّ لفّه فى كِساءٍ، وحمله على عاتقِه، وخرج من الدار.

فقلتُ لنفسى: لأىّ شىءٍ قُعُودى؟

فقمتُ، فجئتُ إلى البدرة، فجعلتها فى الكِساء الّذى كان علىّ، وخرجتُ أسعى سعيًا شديداً.

فلم أزل كذلك، حتّى رأيتُ مسجدًا قد فتحه إنسان، وخرج منه، وجلس يبول، فدخلته، وجاء الرّجل الّذى كان يبول، فَدَخَلَهُ، وأغلق بابه.

وقال لى: أىُّ شىء أنت؟

فقلت: غريبٌ: جئتُ الساعةَ من السواد[2]، ولم أجسر أن أتجاوزَ هذا الموضِع، فأجِرْنى، أجارَك الله.

---

(١) البدرة: الصرة الصغيرة، أو القبضة من المال.

(٢) سواد العراق: الريف.

فقال: ثم مكانَك، فتركْتُ البِدرةَ تحت جنبى واتّكأتُ عليها.

فلم ألبث حتّى سمعتُ فى الطريق صوتَ رجلٍ يسعى سعيًا شديدًا، وإذا كلام صاحبى بعينه، وهو يقول: عمِلها ابنُ الزانية، وَيْلى على دمه.

فأبصرتُه من شُبّاك المسجد، وإذا فى يده خِنْجر مُجرَّد، وهو يتردّد ذاهبًا وجائيًا، وأعماه الله عن دخول المسجد، إلى أن مضى.

ولم أزل ساهرًا لا يحملنى النوم، خوفًا منه، وإشفاقًا على ما معى، إلى أن أضاء الصّبح، وأُذِّن فى المسجد.

وخرجتُ كأنّى أتوضّأ، وحملْتُ ما معى، ومشيتُ، والنّاس قد كَثُرُوا فى الطريق، حتّى انتهيتُ إلى بيتى، فأخفيْتُ ما جئتُ به، وأصلحت حالى، وحالَ زوجتى.

ثمّ خرجتُ إلى ضَيْعَةٍ -كانت لأبى- خرابٍ، فأقمتُ بها مدّة، حتّى عمّرتها بأكثرَ ذلك المال، وعلمتُ أنّه لا يتّفق مثلُ هذا الاتفاق أبدًا، ولَزِمْتُ شأنى، وصَلُحَتْ حالى.

●●●

## ١٤- التَّطهيرُ بالفَنِّ

أخبرنى أبو الفرج الأصبهانُّى، قال: أخبرنى الحَرَمِىُّ بن أبى العلاء، قال: حدّثنا الزُّبير بنُ بكّار، قال: حدّثنى عمّى مُصْعَبَ، عن عبد الرّحمن بن المُغيرة الحزامى الأكبر، قال:

لما قَدِمَ عثمانُ بنُ حيّان المُرِىُّ[١] المدينة واليًا عليها، قال له قوم من وُجوه النّاس: قد وُلِّيتَ المدينةَ على كَثْرَة من الفساد، فإن كنتَ تريد أن تُصْلِحَ، فطهّرها من الغِناء والزناء.

فصاح فى ذلك[٢]، وأجَّل أهلَه ثلاثًا، يُخرَجون فيها من المدينة.

وكان ابنُ أبى عَتيق[٣] غائبًا، وكان من أهل الفضْلِ والعفافِ والصلاحِ، فلمّا كان فى آخر ليلة من الأجل، قَدِم.

فقال: لا أدخل منزلى حتّى أدخلَ على سلاَّمةَ القَسِّ[٤].

فقال لها، وقد دخل عليها: ما دخلتُ منزلى، حتّى جئتكم أسلّم عليكم.

قالوا: ما أغفَلَكَ عن أمورنا، فأخبروه الخبر.

فقال: اصبروا لى اللّيلة.

فقالوا: نخاف أنّ لا يُمكنك شىء، ونُؤْذَى.

فقال: إن خِفْتُم شيئًا، فاخرجوا فى السَّحَر.

ثمّ خرج، واستأذن على عثمانَ بنِ حيّان، فأذِنَ له، فسلّم عليه، وذكر غَيْبَتَه، وأنّه جاء ليقضِىَ حقه، ثمّ جزاه خيرًا على ما فعل من إخراج أهل الغِناء والزِّناء.

وقال: أرجو أن لا تكون عَمِلْتَ عملاً، هو خيرٌ لك من ذلك.

---

(١) فى زمن الخليفة عبد الملك بن مروان.

(٢) أرسل المنادين يعلنون قراره بإخراج أهل الغناء عن المدينة.

(٣) حفيد أبى بكر الصدِّيق، ناقد محب للشعر، وصديق لعمر بن أبى ربيعة.

(٤) سلاّمة أشهر المغنيات، ونُسبت إلى رجل صالح أحبها حبّاً عفيفًا، سمى «القَس» لصلاحه.

قال عثمان: قد فعلتُ ما بَلَغَكَ، وأشار عليّ به أصحابُك.

قال: قد وُفقتَ، ولكن ما تقول يرحمُكَ الله فى امرأةٍ كانت هذه صناعتَها، ثمّ تركتْها، وأقبلت على الصيام والصدقة والخيْر، وإنّى رسولُها إليك تقول: أتوجّه إليك، وأعوذُ بك أن تُخرجنى من جوار رسول الله ﷺ، ومن مسجده.

فقال: إنّى أدعُها لك ولكلامك.

فقال ابنُ أبى عَتيق: لا يَدَعُكَ النّاسُ، ولكن تأتيك، وتسمعُ كلامَها، وتنظرُ إليها، فإن رأتَ أنّ مثلها يسع أن تُترك، تركتَها.

قال: نعم.

فجاءه بها، وقال لها: احملى معك سُبحة، وتخشى، ففعلَتْ.

فلمّا دخلتْ على عثمانَ، حدّثتْه، فإذا هى من أعلم النّاس بأمور النّاس، فأعجِب بها، وحدّثتْه عن آبائه وأمورهم ففَكِهَ لذلك.

فقال لها ابنُ أبى عَتيق: اقرئى للأمير، فقرأتْ.

فقال لها: احدِى له، ففَعلّتْ، فكثُر عَجَبُهُ بها.

فقال: كيف لو سمعتَها فى صناعتها، فلم يزلْ يُنْزِلُهُ شيئًا شيئًا، حتّى أمرها بالغناء، فقال لها ابنُ أبى عَتيق: غنّى:

سَدَدْنَ خَصَاصَ البَيْتِ لما دَخَلْنَهُ ... بكلِّ لَبَانٍ واضحٍ وجبينِ

فغنّته، فقام عُثمانُ بنُ حيّان، فقعدَ بين يديها، ثمّ قال: لا واللهِ، ما مثلُ هذه تُخْرج.

فقال ابنُ أبى عَتيق: لا يَدَعُكَ النّاس، يقولون أقرَّ سلاّمةَ، وأخرج غيرَها.

فقال: دعوهم جميعًا، فتركوهم.

وأصبح النّاسُ يتحدّثون بذلك، يقولون: كلَّمَ ابنُ أبى عَتيقٍ الأميرَ فى سلاّمةَ القسِّ، فتُرِكُوا جميعًا.

---

(١) تأمل ذكاء ابن أبى عتيق فى ترتيب هيئة هذه المغنية، والتدرج فيما تعرضه من فنون، كيف بدأت بالثقافة العامة، ثم تطرقت منها إلى أخبار آبائه، مما ينتفخ به غرورًا واعتزازًا، ثم قرأت القرآن، ثم جاء الحداء، وهو شعر بدوى يمس القلوب الجافية كقلب هذا المرى، ثم كان شعر الغزل.. يشق طريقه بلا اعتراض.

## ١٥- ضَمَائِرُ قَلِقَة

ذكر محمّدُ بنُ إسحاقَ بنِ أبى العشير، عن إسحاقَ بنِ يَحيى بن مُعاذ، وقال: حدّثنى سَوّار، صاحبُ رَحْبَةِ سوّار، قال:

انصرفْتُ من دار المهدىّ، فلمّا دخلتُ منزلى، دَعَوْتُ بالغداء، فحاشَتْ نفسى، فأمَرْتُ بِهِ فَرُدَّ.

ثمَ دعوتُ بالنَّرْدِ، ودعوتُ جاريةً لى ألاعبها، فلم تَطِبْ نفسى بذلك، ودخلَتْ القائلَةُ، فلم يأخذنى النّوم.

فنهضتُ، وأمرتُ ببغلة لى شهباءَ، فأسْرِجَتْ، فركبتها، فلمّا خرجت استقبلنى وكيلٌ لى ومعه ألفا دِرهم.

فقلت له: ما هذا؟

فقال: ألفا دِرهم، جَبَيْتُها من مستغلّك الجديد.

قال: قلت: أمسِكْها معك، واتبعنى.

قال: ومضيتُ، وخلّيتُ رأسَ البغلة، حتّى عبرتُ الجِسر، ثمّ مضت بى فى شارع دار الرّقيق، حتّى انتهيتُ إلى الصحراء، ثمّ رجعتُ إلى باب الأنْبار، فطوَّفْتُ، فلما صرتُ فى شارع باب الأنبار، انتهيتُ إلى باب دارٍ لطيف عنده شجرةٌ، وعلى الباب خادمٌ، فوقفتُ، وقد عَطِشْتُ.

فقلت للخادم: أعندك ما تَسْقِينيه؟

قال: نعم، فأخرج قُلَّة نظيفة طيّبةَ الرّيح، عليها مِنْديل، فناولنيها، فشربْت.

وحضر وقتُ العصر، فدخلتُ مسجدًا، فصليتُ فيه، فلمّا قضيتُ صلاتى، إذا أنا بأعمى يتلمّس.

قلت: ما تريد يا هذا؟

قال: إيّاك أُريد.

قلت: وما حاجَتُك؟

فجاء حتّى قعدَ إليّ، فقال: شَمَمْتُ منك رائحةَ الطيب، فتخيّلتُ أنّك من أهل النعمة، فأردتُ أن ألقِيَ إليكَ شيئًا.

فقلت قُلْ.

قال: أترى هذا القصر؟

قلت: نعم.

قال: هذا قصرٌ كان لأبى فباعه، وخرج إلى خُراسان، وخرجتُ معه، فزالت عنّا النّعمةُ الّتى كنا فيها، فأتيتُ صاحبَ الدّار، لأسأله شيئًا يَصِلُنى به، فإنّى فى ضَنْك شديد، وَضْغَطةٍ عظيمة، ورُزُوحِ حالٍ قبيح، وأصير إلى سوّار، فإنّه كان صديقًا لأبى.

قلت: ومَنْ أبوك؟

قال: فلانٌ ابنُ فلان فإذا أصدق النّاس -كان- لى.

فقلت: يا هذا، إنّ الله قد أتاك بِسَوَّار، مَنَعَهُ الطعامَ والشرابَ والنّومَ، حتّى جاء به فأقعدَه بين يديك.

ثمّ دعوتُ الوكيل، وأخذتُ منه الألفى دِرهم، فدفعتُها إليه، وقلت له: إذا كان غدًا، فَصِرْ إلىّ، إلى المنزل.

ثمّ مضيتُ، فقلت: ما أحدّث المهْدى، بشىء أطرفَ من هذا، فأتيتُه، فاستأذنتُ عليه، فأذنَ لى، فحدّثتُه بالحديث، فأعْجب به، وأمر لى بألفى دينار، فأحضِرَتْ.

فقال لى: ادفعها إليه.

قال: فنهضتُ، فقال لى: اجلس، أعليك دَيْن؟

قلت: نعم.

قال: كم مبلغه؟

قلت: خمسون ألفَ دينار.

فقال: تُحمَل إليك، فاقضِ بها دَيْنَك، فقبضتُها.

فلما كان من الغد، أبطأ عليّ المكفوف، وأتانى رسولُ المهدى، يدعونى، فجئتُه.

فقال: فكّرتُ فى أمرك، فقلت: يقضى دَيْنَه، ثم يحتاج إلى الحيلة والقرض، وقد أمرتُ لك بخمسين ألفَ دينارٍ أخرى.

قال: فقبضتُها، وانصرفت.

فجاءنى المكفوف، فدفعت إليه الألفى دينار، وقلت له: قد رَزَقَ الله خيرًا كثيرًا، وأعطيته من مالى ألفىْ دينار أخرى، فقبض أربعة آلاف دينار، ودعا لى، وقال: والله، ما ظننت أنى أصلُ منك، ولا من أحدٍ من أهل هذه البلاد، إلى عُشْر هذا المال، فجزاك اللهُ خيرًا.

●●●

## ١٦- سَبَعْ صَنَايِعْ!!

وذكر أبو الحسيْن القاضى، فى كتابه، قال: بلغنى عن عمرو بن مَسْعدَة، أنه قال:

كنتُ مع المأمون عند قدومه من بلاد الروم، حتى إذا نزل الرَّقَّة، قال لى: يا عمرو، أما ترى الرُّخَّجِى، قد احتوى على الأهْوَاز، وهى سَلّةُ الخُبز، وجميعُ الأموال قِبَله، وقد طمعَ فيها، وكُتُبى مُتّصِلة فى حَمْلِها، وهو يتعلل، ويتربّصُ بنا الدوائر.

فقلت: أنا أكفى أمير المؤمنين هذا، وأنفِذُ مَنْ يضطره إلى حَمْل ما عليه.

فقال: ما يُقنعنى هذا.

قلت: فيأمرُ أميرُ المؤمنين بأمره.

قال: تخرجُ إليه بنفسك، حتى تُصَفِّدَه بالحديد، وتحمله إلىّ، بعد أن تقبضَ جميع ما فى يده من أموالنا، وتنظر فى ذلك، وترتّبَ فيه عمالاً.

فقلت: السمعُ والطاعة، فلما كان من غد، دخلتُ إليه.

فقال: ما فعلت فيما أمرتُك به؟

قلت: أنا على ذاك.

قال: أريد أن تجيئَنى فى غدٍ مودّعًا.

قلت: السمع والطاعة، فلما كان من غدٍ، جئتُ مودّعًا.

فقال: أريد أن تحلفَ لى، أنك لا تقيم ببغداد إلا يومًا واحدًا، فاضطربتُ من ذلك، إلى أن حَظر علىّ واستحلفنى أن لا أقيم فيها أكثر من ثلاثة أيّام، فخرجتُ، وأنا مضطربٌ مغمومٌ.

وقلت في نفسي: أنا في موضع الـوَزارة، وقد جعلني مُسْتَحِثاً إلى عامل[1]، ومستخرجًا، ولكنّ أمرَ الخليفة لابد من سماعه، وامتثال مرسومه.

وسرتُ حـتى قَدمْـتُ بغداد، ولم أُقِمْ بهـا إلا ثلاثة أيّام، وانحدرتُ منهـا في زَلال[2]، أريد البصرة، وجُعِل لي فيه خَيْشٌ، واستكثرت من الثلج لشدة الحرّ.

فلما صرتُ بين جَرْجَرَايا، وجـبّل، سمعتُ صـائحًا من الشاطئ، يصـيح: يا ملاح، فرفعتُ سَـجْفَ الزَّلال، فإذا بشيخ كبير الســن حاسر الرأس، حافي القدمين، خَلَقِ القميص.

فقلت للغلام: أجِبْه، فأجابه.

فـقال: أنا شـيخٌ كـبيـرُ السنّ، على هذه الصـورة التى ترى، وقـد أحرقـتْني الشمسُ، وكادت تُتلـفُني، وأنا أريد جبّل، فاحملوني معـكم، فإن الله عَزَّ وجَلَّ يُحسنُ أجر صاحِبكم.

قال: فشتمه الملاح، وانتهره.

فأدركتني عليـه رِقّة، وقلتُ للغلام، خذه معنا، فـقدّم إلى الشط، وصِحْنا به، وحملناه.

فلما صار مـعنا في الزلال، وانحدرْنا، تقدّمت، فدُفِعَ إليـه قميصٌ، ومنديل، وغَسَل وجهه، واستراح، فكأنه كان ميتًا عاد إلى الدنيا.

وحضر وقتُ الغَدَاء، فتذمَّمْتُ[3] وقلت للغلام: هاتِهِ يأكل معنا.

فجاء وقعد على الطعام، فأكل أكْلَ أديب، نظيف، غير أن الجوع قد أثر فيه.

فلما رُفِـعَتْ المائدة، أردتُ أن يقوم ويغسل يده ناحيـة، كما يفعل العـامة، في مجالس الخاصة، فلم يفعل، فغسلتُ يدى.

---

(١) عمـرو بن مـعدة، وهو وزير، يأنف أن الخـليفة كلفه بعـمل لا يقوم به الوزير، وإنما المستـحث (رجال المتابعة من الكتّاب) لكنه لا يملك غير الطاعة، وهذه مقدمة «نفسية» مهمة بالنسبة للقصة، كما ستتطور.

(٢) الزلال: زورق خفيف من سفن السفر الصغيرة.

(٣) تذممت: شعرتُ بالحرج والحياء.

وتذممتُ أن آمر بقيامه، فقلت: قدّموا له الطّسْتَ. فغسل يده. وأردتُ بعدها أن يقوم لأنام، فلم يفعل.

فقلت: يا شيخ، أيش صناعتُك؟

قال: حائك، أصلحَك الله.

فقلت في نفسي: هذه الحياكة علّمَتْهُ سوء الأدب، فتناومْتُ عليه، ومددتُ رجليَّ.

فقال: قد سألتني عن صناعتي، فأجبتُكَ، فأنت -أعزّكَ الله- ما صناعتُك؟

فأكْبرتُ ذلك، وقلت: أنا جَنَيْتُ على نفسي هذه الجناية، ولابد من احتماله، أتراه -الأحمق- لا يرى زَلالي، وغِلماني، ونِعمتي، وأن مثلي لا يُقال له مثلُ هذا؟

ثم قلت: أنا كاتب.

فقال: كاتبٌ كامل، أم كاتب ناقص؟ فإن الكتّاب خمسة، فمن أيهم أنت؟

فَوَرَدَ عليّ من قول الحائك، مَوْرِدٌ عظيم، وسمعتُ كلامًا أكبرتُهُ، وكنت متّكئًا، فجلست.

ثم قلت له: فَصّل الخمسة.

قال: نعم، كاتبُ خَراج، يقتضي أن يكون عالمًا بالشُّروط، والطُّسوق، والحساب، والمساحة، والبُثوق، والفُتوق، والرُّتوق.

وكاتبُ أحكام، يحتاج أن يكون عالمًا بالحلال، والحرام، والاختلاف، والاحتِجاج، والإجماع، والأصول، والفروع.

وكاتبُ معونة، يحتاج أن يكون عالمًا بالقصاص، والحدود، والجراحات، والمراتبات، والسياسات.

وكاتبُ جيش، يحتاج أن يكون عالمًا بِحُلى الرجال، وشِيَات الدواب، ومداراة الأولياء، وشيءٍ من العلم بالنَّسب والحساب.

وكاتبُ رسائل، يحتاج إلى أن يكون عالمًا بالصدور، والفصول، والإطالة، والإيجاز، وحُسْنِ البلاغة، والخط.

قال: فقلت: أنا كاتبُ رسائل.

قال: فأسألُك عن بعضها؟

قلت: سَلْ.

قال: أصلحك الله، لو أن رجلاً من إخوانك تزوّجت أمه، فأردت أن تكاتبه مهنئًا، فماذا كنت تكتب إليه؟

ففكّرتُ في الحال، فلم يخطر ببالي شيء، فقلت: اعفْني.

قال: قد فَعَلْتُ، ولكنك، لست بكاتب رسائل.

قلت: أنا كاتب خراج.

قال: لا بأس، لو أن أمير المؤمنين ولاك ناحية، وأمرك فيها بالعدل والإنصاف، وتقصى حق السلطان، فتظلم إليك بعضهم من مَسَّاحِكَ، وأحضرتَهم للنظر بينهم وبين رعيتك، فحلف المسَّاحُ بالله العظيم، لقد أنْصفوا، وما ظُلموا، وحلف الرعية بالله العظيم، أنهم قد جاروا وظَلَموا، وقالوا لك: قف معنا على ما مسحوه، وانظر من الصادق من الكاذب، فخرجت لتقفَ عليه، فوقفوا على قَرَاحٍ شكْلهُ: قاتِلُ قَثًّا[1]. كيف كنتَ تمسحه؟

فقلت: كنت آخذ طوله على انعواجه، وآخذ عرضه، ثم أضربه في مثله.

قال: إن شكْل قاتِلَ قثًّا، يكون رأساه محددان، وفي تحديده تقويس.

قلت: فآخذ الوسط فأضربه بالعمود.

قال: إذًا ينثني عليك العمود، فأسكتني.

فقلت: أنا لستُ كاتبَ خَراج.

---

(١) بمعنى أن الخلاف على مساحة قطعة أرض على شكل ثمرة القثاء.

قال: فإذًا ماذا؟

قلت: أنا كاتبُ قاضٍ.

قال: لا تُبَال، أفرأيت لو أن رجلاً تُوُفّى، وخلَّف امرأتين حاملتين، إحداهما حرّة، والأخرى سُرِّيَة، وولدت السُّريةُ غُلامًا، والحرّةُ جارية، فَعَمَدت الحرّةُ إلى ولد السُّرية فأخذته، وتركت بدله الجارية، فاختصمتا فى ذلك، كيف الحكم بينهما؟

قلت: لا أدرى.

قال: فلست كاتب قاضٍ.

قلت: أنا كاتبُ جيش.

قال: لا بأس، أرأيت، لو أن رجلين جاءا إليك لتحليهما[1]، وكل واحد منهما، اسمه، واسم أبيه، كاسم الآخر، واسم أبيه، إلا أن أحدهما مشقوقٌ الشفة العليا، والآخر مشقوقُ الشفّة السفلى، كيف كنت تحليهما؟

قلت: أقول فلان الأعلم، وفلان الأعلم.

قال: إنّ رزقيهما مختلفان، وكل واحد منهما يجىء فى دَعْوَة الآخر.

قلت: لا أدرى.

قال: فلستَ بكاتبِ جيش.

قلت: أنا كاتبُ مَعونة.

قال: لا تُبَال، لو أنّ رجلين رُفعا إليك شُجَّ أحدُهما شجّة موضَّحة[2]، وشَجَّ الآخرُ صاحبة شجة مأمومة[3]، كيف تفصل بينهما؟

قلت: لا أدرى.

---

(١) تسجل اسمهما مع تمييز كل منهما عن الآخر.

(٢) الشجة الموضحة أو الواضحة: التى بلغت العظم وكشفت عنه.

(٣) الشجة المأمومة- نسبة إلى أم الدماغ- فهى فى قمة الرأس.

قال: إذن، لستَ كاتبَ معونة، فاطلب لنفسك -أيها الرجل- شُغْلاً غير هذا.

قال: فَقَصُرت إليَّ نفسى، وغاظنى، فقلت: قد سألت عن هذه الأمور، ويجوز أن لا يكون عندَك جوابُها، كما لم يكن عندى، فإن كنتَ عالمًا بالجواب، فَقُلْ.

فقال: نعم، أما الذى تزوّجَتْ أمّه، فتكتب إليه: أمّا بعد، فإنّ الأمور، تجرى من عند الله، بغير محبّة عباده، ولا اختيارهم، بل هو تعالى، يختار لهم ما أحبّ، وقد بلغنى تزويجُ الوالدة، خَارَ اللهُ لك فى قبضها، فإن القبرَ أكرمُ الأزواج، وأستر للعيوب، والسلام.

وأمّا قُراح قاتل قَتًّا، فيُمسح[1] العمود، حتى إذا صار عددًا فى يدك ضربتَه فى مثله، ومثل ثلثه، فما خرج فهو مساحته.

وأمّا الجاريةُ والغلام، فيوزَن اللبنان، فأيّهما أخفّ، فالجارية له.

وأمّا المرتزقان المتوافقان فى الاسمين فإن كان الشَّقّ فى الشفة العليا، كتبتَ فلان الأعلم، وإذا كان فى الشفة السفلى، كتبت فلان الأفلح.

وأما أصحاب الشجّتين، فلصاحب الموضّحة ثلثُ الدِّية، ولصاحب المأمومة نصفُ الدية.

قال: فلمّا أجاب فى هذه المسائل، تعجّبت منه، وامتحنته فى أشياء غيرها كثيرة، فوجدتُه ماهرًا فى جميعها، حاذقًا، بليغًا.

فقلت: ألستَ زعمتَ أنك حائك؟

فقال: أنا -أصلحك اللهُ- حائكُ كلام، ولستُ بحائكِ نِسَاجَة، ثم أنشأ يقول:

ما مرَّ بؤسٌ ولا نعيم ... إلا ولى فيها نصيبُ

نوائبُ الدهر أدَبتْنى ... وإنّما يوعَظ الأديبُ

قد ذقتُ حُلوًا وذقتُ مرًا ... كذاك عيش الفتى ضُروبُ

---

(١) المسح: القياس أو المساحة.

قال: فما سبب الذى بك من سوء الحال؟

قال: أنا راجل كاتب، دامت عُطلتى، وكثرت عَيْلتى، وتواصلت محنتى، وقلت حيلتى، فخرجتُ أطلب تصرّفًا[1]، فقُطِعَ علىَّ الطريق، فتُركت كما ترى، فمشيْتُ على وجهى، فلما لاح لى الزلال، استغثتُ بك.

قلت: فإنى قد خرجتُ إلى تصرّف جليل، أحتاجُ فيه إلى جماعة مثلك، وقد أمَرْتُ لك بخلعة حسنة، تصلح لمثلك، وخمسة آلاف درهم، تُصلح بها أمرَك، وتنفذ منها إلى عيالك، وتتقوّى نفسُك بباقيها، وتصير معى إلى عملى، فأوليك أجلّه، إن شاء الله تعالى.

فقال: أحسن اللهُ جزاءك، إذن تجدنى بحيث يسرّك، ولا أقومُ مقام معذَّر إن شاء الله.

فأمرتُ بتقبيضه ما رسمتُ له، فقبضه، وانحدر إلى الأهواز معى، فجعلته المُنَاظِرَ للرُّخجى، والمحاسب له بحضرتى، والمستخرج لما عليه، فقام بذلك أحسن قيام وأوفاه.

وعَظُمَتْ حاله معى، وعادت نعمتُه إلى أحسن ما كانت عليه.

●●●

(١) التصرف: الوظيفة.

## ١٧- ثقة!!

وحكى محمد بن الحسن بن المظفّر، قال:

حضرتُ العـرْضَ فى مجلس الجانب الشرقـى ببغداد[١]، أيام نَازُوك، فأخرج خليفةُ نازوك[٢] على المجلس جماعة، فَقَتَلَ بعضهم.

ثم أخرج غـلامًا حَـدَث السن، مليح المنظر، فرأيتـه لما وقف بين يدى خليـفة نازوك، تبسم.

فقـلت: يا هذا، أحسَـبُكَ رابطَ الجأش، لأنى أراك تضـحك فى مقـامٍ يوجب البكاء، فهل فى نفسك شىء تشتهيه؟

فقال: نعم، أريد رأسًا حارًّا[٣] ورقاقًا.

فسألتُ صاحب المجلس أن يؤخّر قتله إلى أن أطعمه ذلك، ولم أزل ألْطفُ به، إلى أن أجاب، وهو يضحك منى، ويقول: أىُّ شىء ينفع هذا، وهو يُقتل؟

قال: وأنفَذْتُ من أحضر الجميع بسرعـة، واستَدْعَيْتُ الفتى، فجلس يأكل غير مُكترث بالحال، والسيّافُ قائم، والقوم يُقدَّمون، فتُضرب أعناقُهم.

فقلت: يا فتى، أراك تأكل بسكون، وقلّة فكر.

فأخـذ قشّة من الأرض، فرمى بهـا، رافعًا يده، وقـال وهو يضحك: يا هذا، إلى أن تسقط هذه إلى الأرض مائةُ فَرَجٍ.

قال: فـوالله، ما استـتمّ كلام، حتى وقعـت صَيْحَةٌ عظيـمة، وقيل: قـد قُتل نازوك.

---

(١) يقصد عرض المسجونين، لإنزال العقوبات المقررة بهم، فى مقر الشُّرطة.

(٢) ناروك قائد تركى، وخليفته أو نائبه على شُرطة بغداد غلام تركى أيضًا.

(٣) اشتهى الغلام لحم رأس ساخنًا، مع رقاق!!

وأغارت العامـة على الموضع، فوثبوا بصاحب المجلس، وكـسروا باب الحبس، وخرج جميع مَنْ كان فيه.

فاشتغلتُ أنا عن الفتى، وجميع الأشـياء، بنفسى، حتى ركبْتُ دابتى مُهَرْولاً، وصرتُ إلى الجسر، أريد منزلى.

فوالله، مـا توسّطت الطريق، حتى أحـسستُ بإنسان قـد قبض على إصـبعى برفق، وقال: يا هذا، ظنُّنا بالله -عـزّ وجَلّ- أجملُ من ظنك فكيف رأيتَ لطيفَ صُنعه.

فالتـفتُ، فإذا الفتى بعينـه، فهنأته بالسلامة، فـأخذ يشكرنى على ما فـعلته، وحال الناس والزحام بيننا، وكان آخر عهدى به.

●●●

## ١٨- أعرابىٌّ شَيْخٌ

وحدّثنى إبراهيم بن على النَّصيبى هذا، قال: حدّثنى أبو القاسم إبراهيم ابن على الصفّار، شيخٌ كان جارًا لنا بنصيبين، قال:

خرجتُ من نَصيبين بسيفِ نفيسٍ، كنتُ وَرَثته من أبى، اقصد به العبّاس ابن عمرو السلمى، أمير ديار ربيعة، وهو برأس عَيْن لأهديه إليه، وأستَجْديه بذلك.

فصحبنى فى الطريق شيخٌ من الأعراب، فسألنى عن أمرى، فأنِسْتُ به، وحدثته الحديث، وكمنا قريبا من رأس عَيْن، ودخلناها، وافترقنا.

وصار يجيئنى، ويراعينى، ويُظهر لى أنه يسلّم علىّ، وأنه يَبَرّنى بالقصد، ويسألنى عن حالى.

فأخبرته أن الأمير قَبِلَ هديتى، وأجازنى بألفِ دِرهم، وثياب، وأنى أريد الخروج فى يوم كذا وكذا.

فلما كان ذلك اليوم خرجتُ عن البلد، راكبًا حمارًا، فلما أصْحَرْتُ[1]، إذا بالشيخ على دُوَيْبَة له ضعيفة، متقلدًا سيفًا.

فلما رأيته استربْتُ به، وأنكرته، ورأيتُ الشر فى عينيه.

فقلت: ما تصنع ههنا؟

فقال: قد قَضَيْتُ حوائجى، وأريد الرجوع، وصُحْبَتُك عندى آثرُ من صحبة غيرك.

فقلت: على اسم الله.

وما زلتُ متحرّزًا منه، وهو يجتهد أن أدنو منه، وأوانسه، فلا أفعل، وكلّما دنا منى، بعدتُ عنه، إلى أن سرنا شيئًا كثيرًا، وليس معنا ثالث.

---

(١) أصحر: صار فى الصحراء.

فقصّر عنى، فحَثْت الحمار، لأفوتَه، فما أحسستُ إلا بركْضه، فالتفتُّ، فإذا هو قد جرد سيفه، وقصدنى، فرميتُ بنفسى عن الحمار، وعَدَوْتُ.

فلما خاف أن أفوته، صاح: يا أبا القاسم، إنما مَزَحْتُ معك، فقف، فلم ألتفت إليه، وزاد فى التحريك.

وظهر لى ناووس[1] فطلبته، وقد كاد الأعرابى يلحق بى، فدخلتُ الناووس، ووقفتُ وراء بابه.

قال: ومن صفات تلك النواويس أنها مبنية بالحجارة، وباب كل ناووس حَجَرٌ واحد عظيم، قد نُقِر، وحُفّف، ومُلّس، فلا تَستَمْكن اليدُ منه، وله فى وجهه حلقة، وليس للباب من داخل شىء تتعلق اليد به، وإنّما يُدفع من خارجه، فيُفتح، فيُدخل إليه وإذا خُرج منه، وجُذبت الحلقة، انغلق الباب، وتمكن هذا من ورائه، فلم يمكن فتحه من داخلٍ أصلاً.

قال: فحين دخلتُ الناووس، وقفتُ خلف بابه، وجاء الأعرابى، فشد الدابّة فى حَلْقة الباب، ودخل يريدنى، مُختَرطًا سيفه، والناووس مُظلم، فلم يرنى، ومشى إلى صدر الناووس، فخرجتُ أنا من خلف الباب، وجذبته، ونَفَرْتُ الدابّة، فجذبَتْهُ معى، حتى صار الباب مردومًا محكمًا، وحَصَّلتُ الحلقة فى رَزَّة هناك، وحَلَلتُ الدابة، وركبتُها.

فجاء الأعرابى، إلى باب الناووس، فرأى الموت عِيانًا، فقال: يا أبا القاسم، أتق الله فى أمرى، فإننى أتلف.

فقلت: تتلف أنت، أهْوَن علىَّ من أن أتلف أنا.

قال: فأخْرجنى، وأنا أعطيك أمانًا، واستَوثق منى بالأيمان، أن لا أعرضَ لك بسوءٍ أبدًا، واذكر الحُرْمة التى بيننا.

فقلت: لم تَرْعَها أنت، وأيْمانك فاجرة، لا أثق بها فى تلف نفسى.

---

(١) الناووس: القبر المبنى ظاهرًا مثل «مقامات الأولياء» فى بلادنا.

فأخـذ يكرر الكلام، فقلتُ له: لا تَهْذِ، دَعْ عنك هذا الكلام واقـعد مكانَك، هُو ذا أنا أركب دابتك، وأجنِّب حـمارى، والوعـد بعـد أيّام بيننا هنا، فلا تبـرح علىّ حتى أجىء، وإذا احـتجت إلى طعام، فعليك بجِـيف العُلوج، فنِعْمَ الطعامُ لك.

وأخذتُ ألهو به فى مثل هذا القول، وأخذ يبكى، ويستغيث، ويقول: قتلتنى، والله.

فقلت: إلى لعنة الله، وركبت دابته، وجنّبتُ حمارى.

ووجدتُ على دابته خُرْجًا فيه ثياب يسـيرة، وجئتُ إلى نَصِبين، فبعتُ الثياب، وكانت دابتـه شهباء، فـصبغتـها دهماء، وبعـتها، لئلا يُعـرفَ صاحبُهـا فأطالَبُ بالرجل، واتفق أنه اشتراها رجل من المجتازين، وكُفيتُ أمره، وانكتمت القصة.

فلما كان بعـد أكثر من سنة، عرض لى الخروج إلى رأس عَـيْن، فخرجتُ فى تلك الطريق، فلما لاح لى الناووس، ذكرتُ الشيخ.

فقلت: أعـدل إلى الناووس، وأنظرُ ما صار إليـه أمره، فجئتُ إليـه، فإذا بابه كما تركتُه.

ففـتحتـه، ودخلت، فإذا بالأعرابى قـد صار رِمة، فـحَمَدتُ اللـه تعالى على السلامة.

ثم حركته برجلى، وقلت له على سبيل العبث: ما خبرُك يا فلان؟ فإذا بصوت شىء يتخَـشْخَش، ففتّـشته، فإذا هِـمْيانٌ، فأخـذته، وأخذت سيفـه، وخرجت، وفتحتُ الهِميان، فإذا فيه خمسمائة درهم، وبِعْتُ السيف بعد ذلك بجُملة دراهم.

●●●

## ١٩- أيضًا.. سَيْكُولُوچِيَّةُ المُوَاجَهة

قال محمّـد بن عَبْدوس فى كتاب «الوزراء»: حكى عن أبى عـبد الله أحمد ابن أبى دُوَاد، أنّه قال:

ما صَحِبَ السلطانَ أرجلُ، ولا أخبثُ من عُمرَ بنِ فرجٍ الرخَّجِىِّ، غضب عليه المعتصم يومًا وهمّ بقتله، وأمر بإحضاره، فجاءوا به وقد نَزَفَ دمُه.

فقال المعتصم: السيفَ، يا غلام، فجَعَلَتْ رُكْبَتَا عُمرَ تصطكَّان.

فقلت: إن رأى أميرُ المؤمنين أن يسألَه عن ذنبه، فلعلّه أن يخرج منه بعذر.

فقال له: يا ابنَ الفاعلة، أمرتُك فى ولد أبى طالب أن تتعرّفَ خبرَ منازلهم؟

قال: لا [(١)].

قال: فَلِمَ فَعلتَ ذلك؟

قـال عـمـر: إنّمـا فـعلتُ ذلك لأنّه بلغنـى عن واحـد منهم أنّ أهل «قُمْ»[(٢)] يُكاتبونه، فأردتُ أن أعلمَ ما فى الكتب الواردةِ عليه.

وجعل عمر فى خلال ذلك يَلْمَس البِسـاط الذى كان تحت المعتصم، فزاد ذلك فى غضبه.

وقال: يا ابنَ الفـاعلة، ما شَغَلَكَ ما أنتَ فـيه عن لَـمْس البِساط، كـأنّك غيرُ مُكترث بما أريد بك؟

فقال: لا والله -يا أمير المؤمنين- ولكنهّ العبد يُعْنَى من أمر سيّده، بكلّ شىء، على جميع الأحوال، فإنى استَخشَنْتُ هذا البِساط، وليس هو من بُسُط الخلافة.

فقال له: ويلُك، هذا البِسـاط ذَكَرَ محمّدُ بنُ عبد الملك أنّه قـام علينا بخمسين ألفَ درِهم.

(١) فقد «تطوّع» بالتجسس على الطالبيين (آل أبى طالب).

(٢) مدينة «قم» مركز الشيعة المقدس فى إيران.

فقال يا سيّدى عندى خيرٌ منه قيمتُه سبعمائة دينار.

قال: فـذهب عن المعتصم -واللهِ- ذلك الفَـورُ الذى كان به، وسكن غَضَـبُهُ. وقال: وَجِّه الساعةَ مَنْ يُحضره.

فجاء ببِساط قد قام عليه -فيمـا أظنّ- بأكثرَ من خمسة آلاف دينار، واستحسنه المعتصم، واستلانه.

وقال: هذا - واللهِ - أحـسنُ من بِساطنا، وأرخص، وقد أخـذناه منك بما قام عليك.

ووالله ما بَرِحَ ذلك اليوم، حتى نادمه، وخَلَعَ عليه.

●●●

## ٢٠- أجْوَد من ابن زائدة

حدّثنى مَرْوان بن أبى حفصة، وكان لى صديقًا، قال:

كان المنصـور قد طلب مَعْنَ بنَ زائدة الشّـيبانى طلبًـا شديدًا[١]، وجعل فـيه مالاً.

فحدّثنى مَعْنٌ باليمن، أنّه اضطُر لشدّة الطلب أن قام فى الشمس، حتى لوَّحتْ وجهَه، وخفّف من عارضيه ولحيـته، ولبس جُبَّة صوف غليظة، وركب جملاً من جمال النقَّالة، وخرج عليه ليـمضىَ إلى البادية، وقد كان أبْلَى فى الحرب ين يَدَىْ ابنِ هُبَيْرَةَ بلاءً حسنًا، فغاظ المنصور، وجَدَّ فى طلبه.

قال مَعْنٌ: فلمّا خـرجْتُ من باب حَرْب، تَبِعَنى أسودٌ، متقلدًا سـيفًا، حتى إذا غِبتُ عن الحرس، قبض على خِطام الجمل، فأناخه، وقبض علىّ.

فقلت: مالك؟

فقال: أنت طِلْبَةُ أمير المؤمنين.

فقلت: ومَنْ أنا حتى يطلبَنى أمير المؤمنين.

قال: أنت مَعْنُ بنُ زائدة.

فقلت: يا هذا اتّق الله، وأين أنا من مَعْنِ بنِ زائدة.

فقال: دع عنك هذا، فأنا والله أعرَفُ بِكَ منك.

فقلت له: فإن كانت القـصّـةُ كمـا تقول، فهذا جَوْهَرٌ حملتُه معى بأضعافِ ما بذل المنصورُ لمن جاء بى، فخذه، ولا تَسْفِك دمى.

فقال: هاتِه، فأخرجْتُه إليه.

---

(١) الطلب هنا يعنى المطاردة والتفتيش، والسبب أنه كان يقاتل فى صفوف جيش الأمويين حين حدث الصدام العسكرى مع بنى العباس.

فنظر إليه ساعةً، وقال: صدقْتَ فى قيمته، ولستُ قابلَهُ حتى أسألَك عن شىء، فإن صَدَقْتَنى أطلقتُك.

فقلت: قُلْ.

قال: إنّ الناس قد وصفوك بالجودِ، فأخبرْنى هل وَهَبْتَ قطُّ مالَكَ كلَّه؟

قلت: لا.

قال: فنصفَه؟

قلت: لا.

قال: فثلثَه؟

قلت: لا، حتى بلغ العُشْر.

فاستحييتُ، فقلت: أظنّ أنّى قد فعلتُ ذلك.

قال: ما أراك فعلتَه، وأنا واللهِ راَجِلٌ[1]، ورِزْقى مع أبى جعفر عشرون درهمًا، وهذا الجوهر قيمته آلافُ دنانير، وقد وهبْتُهُ لك، ووهبتُكَ لنفسك، ولجودِك المأثورِ بين الناس، ولتعلَمَ أنّ فى الدنيا أجودَ منك، فلا تعجبُك نفسُكَ، ولِتَحْقِرَ بعدَها كلَّ شَىء تعمله، ولا تتوقّفَ عن مكْرُمة، ثم رمى العِقد فى حجرى، وخلَّى خِطام البعير، وانصرف.

فقلت له: يا هذا، قد والله فَضَحْتَنِى، ولَسَفْكُ دمى أهْونُ علىَّ مما فعلتَه، فخذ ما دفعتُه إليك، فإنّى عنه غَنِىٌّ.

فضحك، وقال: أردتَ أن تكذِّبنى فى مقالى هذا، واللهِ لا أخذتهُ، ولا آخذ لمعروفٍ ثمنًا أبدًا، وتركنى ومضى.

فواللهِ لقد طلبتُه بعد أن أمِنْتُ، وضَمِنْتُ لمن جاءنى به ما شاء، فما عَرَفْتُ له خبرًا، وكأنّ الأرض ابتلعته.

---

(١) راجل: أسير على قدمىّ.

## ٢١- حَدْس!!

حدّثنى محمد بن عمر بن شُجاع المتكلّم، ويلقّب بجُنَيْد، قال: حدّثنى رجل من الدقّاقين، فى دار الزُّبَيْر بالبَصرة، قال:

أورد علىّ رجل غريب، سَفْتجَةَ بأجَلٍ[١]، فكان يتردّد علىَّ، إلى أن حلّ ميعاد السَّفْتَجةَ.

ثم قال لى: دَعْها عندَك حتى آخذَها متفرّقة، فكان يجىء فى كلّ يوم فيأخذ بقدر نفقته إلى أن نَفِدَتْ، وصار بيننا معرفة، وألف الجلوس عندى، وكان يرانى أخرِج من كيسى من صندوقٍ لى، فأعطيه منه.

فقال لى يومًا: إنّ قُفْلَ الرجل، صاحبُه فى سَفَرِه، وأمينُه فى حضره، وخليفتُه على حفْظ ماله، والذى ينفى الظَّنّة عن أهله وعياله، فإن لم يكن وثيقًا تطرّقت الحِيَلُ عليه، وأرى قُفْلَكَ هذا وثيقًا، فقل لى ممن ابتعتَه، لأبتاع مثلَه.

فقلت: من فلان ابن فلان الإقفالىّ، فى جوار باب الصفّارين[٢].

قال: فما شعرتُ يومًا، وقد جئتُ إلى دَكّانى، فطلبتُ صندوقى لأخرج منه شيئًا من الدراهم، فحمله الغلام الىّ، ففتحتُه، فإذا ليس فيه شىء من الدراهم.

فقلتُ لغلامى -وكان غير متّهم عندى-: هل أنكرت من الدَّرَّابات شيئًا؟

قال: لا.

فقلت: فتّشْ، هل ترى فى الدكان نَقْبًا؟

قال: لا.

فقلت: فمن السقف حِيلة؟

---

(١) السفتجة: إيصال تسليم مال، يقابله «الشيك» وكان هذا النظام معمولاً به، بين الأمصار والمدن الإسلامية فى العصر العباسى، ويختص به وكلاء، منهم صاحب القصة، يقومون بعمل «البنوك».

(٢) الصفارين: مَن يُطلق عليهم فى مصر «النحاسين».

قال: لا.

قلت: فاعلم أنّ الدراهم قد ذَهَبتْ.

فقلق الغلامُ، فسكّنْتُهُ، وقمتُ لا أدرى ما أصنع، وتأخّر الرجل عنّى، فلمّا غاب اتّهمتُه، وذكرتُ مسألته عن القُفل.

فقلت للغلام: أخبرنى كيف تفتح دكّانى وتُغْلِقُه؟

قال: رسمى أن أدرّب دَرابتْين دَرَّابتين، والدَّرَّابات[1] فى المسجد، فأحملها فى دفعات، اثنتين أو ثلاثًا، فأشرجها، ثم أقفل، وكذلك عندما أفتحها.

فقلت: البارحة، واليوم، فعلتَ ذلك؟

قال: نعم.

فقلت: فإذا مضيْتَ لتردَّ الدَّرَّابات، أو تحضَرها، على مَنْ تَدَعُ الدكان؟

قال: خاليًا.

قلت: فمن هنا دُهِيتُ.

ومضيتُ إلى الصانع الذى ابتعتُ منه القُفل، فقلت: جاءك إنسانٌ منذ أيام، واشترى منك مثلَ هذا القُفل؟

قال: نعم، رجل من صفته كيت وكيت، فأعطانى صفةَ صاحبى.

فعلمتُ أنّه احتال على الغلام وقت المساء، لما انصرفتُ أنا، ومضى الغلام يحمل الدَّرَّابات، فدخل هو إلى الدكان فاختبأ فيه، ومعه مِفتاح القُفل الذى اشتراه، والذى يقع على قُفلى، وأنّه أخذ الدراهم، وجلس طول ليلته خلف الدَّرَّابات. فلما جاء الغلام، وفتح دَرَّابَتين، وحملها ليرفعَها، خرج، وأنّه ما فعل ذلك، إلاّ وقد خرج إلى بغداد.

فسلّمتُ دكانى إلى الغلام، وقلتُ له: مَنْ سأل عنّى فعرّفه أنّى خرجتُ إلى ضيْعتى.

---

(١) البوابات..

قال: فخرجتُ، ومعى قُفْلى ومفتاحهُ وقلت: أبتدئ بطلب الرجل بِواسِطَ.

فلمّا صعدت من السَّميريّة[١]، طلبتُ خانًا فى الكتبيّين بواسط، لأنزلَه، فأرشِدْت إليه، فصعِدْتُ، فإذا بقُفْلٍ مثل قُفلى سواءً على بيت[٢].

فقلت لقيّم الخان: هذا البيت مَن ينزله؟

فقال: رجلٌ قَدِم من البَصرة أمس.

فقلت: أىُّ شىء صفته؟

فوصف لى صفةَ صاحبى، فلم أشكّ أنّه هو، وأنّ الدراهم فى بيته.

فاكْتَرَيْتُ بيتًا إلى جانبه، ورصدتُ البيت، حتى انصرف قيّمُ الخان، وقمتُ ففتحتُ القُفل بمفتاحى، فحين دخلتُ البيتُ وجدْتُ كِيسى بعينه، فأخذتُه، وخرجتُ وأقفلتُ الباب، ونزلتُ فى الوقت إلى السفينة التى جئتُ فيها، وأرغَبْتُ الملاّحَ، وانحدرتُ إلى البَصرة.

فما أقمتُ بِواسطَ إلاّ ساعتين من نهار، ورجعتُ إلى منزلى بمالى بعينِهِ.

●●●

(١) السميرية: نوع من سفن السفر تصلح للمسافات القصيرة.

(٢) البيت هنا: الغرفة.